
MACCHIATO
CAPPUCCINO
MOCHA
AMERICANO
AFE LATTE
ESPRESSO
يوميات
الكوفي شوب
وقصص أخرى
بثينة الناصري

يوميات الكوفي شوب

وقصص أخرى

بثينة الناصري

إصدارات إي-كتب

لندن حزيران-يونيو 2016

Coffee Shop Diary

By: **Buthaina Alnasiri**

All Rights Reserved to the author

Published by E-Kutub.com, 2016

ISBN: 9781780582108

*****

الطبعة الأولى، لندن، حزيران-يونيو 2016

تأليف: **بثينة الناصري**

الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة©

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب ألكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.

إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر **(إي- كتب)** أو غوغل بوكس، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:

ekutub.info@gmail.com

يمكنك الكتابة الى المؤلفة على العنوان التالي:

balnasiri@gmail.com

تصميم الغلاف: إهداء من الفنان المصري **أحمد خلف**

أهدي كتابي هذا
إلى
بثينة الناصري
أخلص صديقاتي
لقد قطعتِ شوطا كبيرا أيتها المغامِرة
ومازال الطريق طويلا

- بثينة

المحتوى

يوميات الكوفي شوب

ليل شتائي 2004

كنت قد أغلقت الباب الزجاجي، بعد أن أدخلت الكراسي والمناضد، وتهيأت لارتشف قدح الشاي الأخير قبل المغادرة، حين دفع الباب، هذا الشاب بقوة نفذ منه، مع هبة هواء بارد.

- هل هناك وقت لطلب نسكافيه؟

نظرت حولي.. المناضد مقلوبة فوق بعضها.

- لا بأس.. إذا وجدتَ لك مكانا وسط كل هذا.

كان المكان صغيرا، بالكاد يحتوي على ثلاث مناضد حديدية مدورة، حول كل منها أربعة كراسي. وقبل منتصف ليل كل يوم، حين أحس أن يومي قد انتهى، ولم أعد قادرة على أن أفتح عيني، أبدأ في جمع الكراسي التي يزدحم المكان بها، والمناضد البيضاء الإضافية المرتبة بإغراء، في الفضاء الممتد خارج الباب الزجاجي.

هذه هي لعبة الكراسي في كل يوم: في الصباح الباكر نتمدد خارج المكان وفي الليل ننكمش داخله.

حملت قدح الشاي معي، وأنا أقف أمام ماكنة القهوة السريعة. يندفع الماء الساخن، وتضوع رائحة النسكافيه. ينزوي الشاب في أحد الأركان، وهو يحيط القدح بكفيه، ويرتشف ببطء، وقد تعلقت عيناه بشاشة التلفزيون.

أفكر.. ماذا لو طاب له المقام، وأراد أن يتابع الفيلم حتى نهايته؟ ولكن لابد أنه يعرف الآن أني على وشك الإغلاق .

من ناحية أخرى: أليس من حقه أن يستمتع بجلسته ومشروبه؟

"حسنا" أقول لنفسي "إذا اطال المكوث، سوف أقول له بصراحة: إن موعد إغلاق المكان قد فات."

ولكن الشاب أزاح القدح الفارغ جانبا، وهو ينهض، واقترب متسائلا عن الحساب. وضع المبلغ على الطاولة، وألقى تحية المساء، وغادر المكان.

يوم مضطرب اواخر شتاء 2005

أحدّثُ شخصا افتراضيا، يجلس أمامي، واضعا ساقا على ساق:

- لنفكر في الأمر من هذه الزاوية. إني أعتبر هذا المكان المتفرد، المتوحد، الهادئ في أطراف المدينة، ملاذا لي، حيث أستطيع، أن أجلس فيه وحدي أخيرا، وأفعل ما أشاء.. أكتب، أقرأ.. أتابع فيلما، أنهض بين حين وآخر، أصنع لنفسي قدح كابتشينو، وتراودني رغبة خفية أن أجرب، يوما، أرجيلة تفاح.

يرد زائري الافتراضي:

- يعني مقهى خاص أنتِ زائره الوحيد.
- لست وحدي تماما، فأنت معي. أليس كذلك؟

هكذا كانت تمضي الأسابيع الأخيرة، قبل أن أتخذ قراري أن يكون مارس آخر الشهور، إلا إذا حدثت معجزة.. تيار عاصف يجرف الناس الذين يملؤون الشوارع.. الناس الذين يمرون فرادى، وجماعات أمام (برديز) دون أن يلووا أعناقهم، أو تقع أعينهم، حتى صدفة على المكان، فيجربوه. عاصفة تطوّحهم كتلة واحدة، إلى باب برديز.

- ماذا حدث؟ لماذا توقف الزبائن عن ارتياد المكان؟

أسأل محدثي، فيقول:

- الكساد ضارب في البلد، حتى أبو سامر السوري.. هل تصدقين؟ ينوي أن يبيع مطعمه! ومطعم «العودة» أقفل أبوابه منذ أشهر.

** * **

كان نصب عيني.. هذا المكان. اسمه le paradis، إذا اضُيئت أنواره كلها، يبدو مثل جوهرة براقة وسط الصحراء، وهذا ليس تعبيرا مجازيا، فنحن وسط صحراء تقريبا، وجدران المحل من الزجاج. ثمة بضعة مبان كاملة، وأخرى مازالت تحت الإنشاء، ومن الجهة الشرقية منخفض هائل، يقال إنه موقع حديقة عامة في تخطيط المدينة، ولكن حتى يتم ذلك، تحول المكان إلى مقلب زبالة. والطريق المؤدي إلى le paradis وما حولها، حالك الظلمة، رغم أنه الدرب الوحيد، في هذا الحي، من وإلى قلب المدينة. الطريق أمام الكوفي شوب، يفضي إلى معهد عال، يتبع جامعة خاصة، يؤمه طلبة وافدون، أغلبهم من عائلات غنية من الصعيد، أو وجه بحري، أو الخليج، ممن يستطيع دفع أجور التعليم في هذا المعهد، وأجور السكن في شقق راقية.

وكان مطعم «العودة» للوجبات الرخيصة، يقع في بداية الطريق، وفيما بعد، قبل إغلاقه نهائيا، اقتصر المحل على بيع الفول والطعمية.

وفي نهاية الطريق، وأمام باب المعهد - ولاقتناص الطلبة - يقع مطعم «أبو سامر السوري» للوجبات السريعة، يصطف أمام بابه موتورسيكلات خدمة التوصيل. ويقال إن أسعاره غالية جدا. وكانت برديز تقع وسط الطريق بين المطعمين.

كنت في حركتي اليومية، بين بيتي والمدينة، وعودتي ليلا، تشدني هذه اللؤلؤة، وسط الظلام القاحل، وأعجب أن تكون مضاءة ومقفلة، لا يؤمها أحد، حتى جاء يوم فوجئت بلافتة مرفوعة على المكان، بكلمة "للبيع"، وتحتها رقم هاتف نقال.

شعرت يومها، أن شيئا جميلا ألفته ينتزع مني. للبيع؟ من أين المال الذي يمكن أن أشتري به؟ وحتى لو كنت أملك ذلك المال، فما تراني فاعلة بمثل هذا المكان الذي ترصعه المناضد والكراسي، وتصطف أمام جداره الزجاجي الأرجيلات الملونة بخراطيمها الملتفة، كأفاع متشابكة حول شجرة تفاح الجنة. مغرية، منادية.

ولكن مع هذه الحيرة والتوق. كنت كلما مررت أمام المكان، أتمهل وأنا ارسم خططا لتزيين الجدران. هنا صورة.. هنا سجادة مجدولة بأيدي النساء الفارعات، في بلادي. هنا أصيص زرع. سوف أحتاج إلى مظلات ملونة: حمراء وصفراء وخضراء، تجذب الانظار في ساعات النهار.

أدرت رقم الهاتف. والتقيت بصاحب المكان في مساء نفس اليوم.

- اسمع لا أملك مالا لشرائه، لكني أستطيع أن أستأجره، وأجرب حظي .

ولم يكن الرجل يحتاج إلى إقناع كبير. لم يكن هو نفسه يرغب في بيع برديز. روى لي أنه -مثل كثير غيره- سافر منذ سنوات إلى أوربا، وعمل في المطاعم، حتى جمع مالا يكفي أن يعود به، إلى وطنه، ويحاول أن يحقق حلم امتلاك مكان حميمي مماثل، لما شاهده وعمل به في بلاد الآخرين.

كان ابن عمه يبني هذه العمارة، فابتاع منه محلا أسفل المبنى، وجاء بمهندس ليرسم له حلمه، وضع كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة في خياله، حتى انبثقت هذه الجنة وسط الصحراء.

حكى لي كيف لم يستطع أن يستمر في إدارته. فقد التحق بوظيفة مضمونة في بنك حكومي. هكذا أقفل الباب على حلمه الذي تعب في خلقه، يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة، حتى لم يعد ثمة بد من أن يفرج عنه أخيرا.

في قرارة نفسه، لم يكن يريد أن يتخلى نهائيا عن «برديز»، وهكذا استجاب لرجائي أن يؤجره مقابل مبلغ اتفقنا عليه، بعد أخذ وردّ قصيرين.

ويجب أن أعترف أنه كان كريما.. مهد كل شيء وذلل كل الصعاب، وفي النهاية، وقبل أن يغادر بسيارته الصغيرة، قال لي، وهو يشير بطرف خفي إلى أبي عاطف، الواقف بعيدا متجمدا يرهف السمع، محاولا ألا يبدو عليه الفضول. «أوقفيه عند حده. هذه نصيحتي لك». لم أفهم إلا بعد فوات الأوان معنى هذه النصيحة، ولم يشرح لي. أستطيع أن أقول الآن، إنه لم يكن صادقا معي.

صباح شتائي مشمس 2005

وأنا أجلس وحيدة هنا، خارج المكان، تغمرني الشمس في آخر يوم من أيام الشتاء. مازالت الشجيرات المزروعة في براميل خشبية كبيرة، عارية من الاوراق. شهر مارس على الأبواب والفروع المشرئبة، لم تلبس حلتها الخضراء بعد.

عيناي تحتضنان كل ما حولي.. تلال الرمل.. هياكل المباني الطالعة من بعيد، الهوة العميقة الشاسعة، مكان الحديقة العامة في مخطط الحي.. الكراسي البيضاء الخالية إلا مني.. ومع ذلك أحس بالبهجة، ربما بسبب الشمس؟

ألمح من طرف عيني، أبا عاطف، حارس العمارة، وهو يقف مثل التمثال عند سور العمارة، يرقب عمال بناء على مقربة، وهم يغرفون، من جبل الحصى المكوم على جانب الطريق. كان لديه صبر عجيب في الوقوف على قدميه، ساعات طويلة، دون أن يمل او يكلّ. والرجل تجاوز السبعين. كان يعطيني ظهره المعتدل باستقامة لا تناسب سنه، نحيف البنية يرتدي بنطلونا متهدلا، ويلف رأسه بعمّة حولها تلفيعة صوفية، وبين حين وآخر، يحول عينيه المحمرتين الزائغتين إلى باب غرفته، في مدخل العمارة، ويصرخ بامرأته "يا امرأة، اسكتي"!

لا أسمع ما تقول، ولكن شهقات من صوت رفيع تتدفق، عبر ممر العمارة، ويبدو أن اذنيه كانتا تلتقطان أية نأمة تصدر عن المرأة، في حين يقف مصلوبا ينظر باهتمام، إلى عمال البناء أمامه.

أول مرة رأيت فيها أم عاطف، وقفت مشدوهة أرقبها. لم يكن زوجها موجودا، ولهذا كانت قد فلتت من إسارها، منهمكة في فعلٍ، بدا عجيبا لي في حينها. كان الوقت مساء، وقد ابتدأت تباشير الظلام. كانت أم عاطف تقترب من كل سيارة واقفة أمام باب العمارة، تضع كفها على عينيها اللتين تلصقهما بزجاج نافذة السيارة، لتتفحص داخلها. ومن واحدة إلى أخرى، كانت تعرج بين السيارات، تطل على داخلها متجمدة لحظات تطول أحيانا. ماذا تفعل هذه المرأة الخرفة؟ أحسست بقشعريرة .

ربما لهذا السبب يحجر أبو عاطف عليها، داخل الغرفة؟ وكانت كلما وضعت قدمها خارجها، يصيح بها:

"يا امرأة.. ادخلي"

كان الفرق بينهما -جسديا- شاسعا، فرغم وجهه الشائخ، كان أبو عاطف ممشوق الجسد، يمشي الهوينا، مثل هرّ معجب بنفسه، وقد اعتاد في الأيام المشمسة أن يظهر مرتديا كابا على رأسه، وحزاما عريضا، يُمسك به بنطلون جينز محبوك، ولم يكن من الصعب تخيل من أين يأتي بهذه الملابس الشبابية، إذ يكون قد تخلى له عنها أحد الطلبة الوافدين من ساكني العمارة. لكنه في أيام البرد، يعود إلى كوفيته الصعيدية، ليختفي نصف وجهه داخلها.

أم عاطف كانت ضئيلة الجسم، قميئة، مكسورة الظهر، تعرج في مشيتها، وترتدي ملابس صعيدية مهدلة، وكان وجهها يبدو أكبر منه بسنوات عديدة. وقد حرصت على أن أبتعد عنها في بداية الأمر، حتى لم أكن ألقي عليها تحية الصباح، إذا فوجئت بها

خارج غرفتها، جالسة على السور الحجري القصير الذي يطوق العمارة.

بعد ايام قليلة من تواجدي بالمكان، استطعت أن أحدس كل خطوة، أو حركة، يقوم بها أي منهما. أبو عاطف يقف متجمدا، في نهاية مربع الحشائش الاخضر أمام باب العمارة، يرقب بسكون هرّ متنمر، حركة الشارع، وأم عاطف -ربما لتتأكد من وجوده- تتسلل بخطى غير مسموعة، بعيدا عن باب غرفتها، فإذا أحس بها، التفتَ إليها صارخا «أدخلي» فتعود مسرعة إلى محبسها. أما حين يهدر صوته بشتائم، فهو على الأكثر، يقف وظهره إلى حائط الكوفي شوب، من ناحية مدخل العمارة. وإذا كان صوت زعيقه مكتوما، فهو في داخل حجرتهما، يعنفها دون أن ترد عليه.

دائما هناك صوت وحيد أجش، يرتفع، ينخفض، ينشرخ، وبعد أن يصمت.. يبدأ صوتها الرفيع في دفقات من كلمات غير مفهومة. يرد عليها، بين فينة واخرى، طالبا منها السكوت، بصوت يبدو أنه بلغ منتهى احتماله.

في أول، وربما آخر مرة، أتبادل الحديث مع أم عاطف، سألتها لماذا تُغضِب رجلها، بخروجها المتكرر من الغرفة؟ أجابت بحسرة:

- لو عندي شباك يا بنتي، لما خرجت. كل أمنية حياتي، أن يكون عندي غرفة بشباك.

لم يكن هناك مواعيد خاصة، يلعلع فيها صوته، وإنما في كل وقت، وأي وقت، وحين يحدث هذا، في وجود زبائن في الكوفي شوب، يكون الأمر محرجا جدا، والشتائم تترى على آذاننا،

تخترق كل الحجب، وتختلط بصخب الأغاني الفاقعة التي يحرص الزبائن على الاستماع إليها.

كانت الفكرة الوحيدة، التي تخطر لي في خضم كل هذا، هي "يا إلهي كيف تورطت هذه الورطة؟"

قال لي وليد الطالب السوهاجي الذي يدرس، وافدا في المدينة، ويقيم في العمارة:

- كثير من الطلبة تركوا سكنهم هنا، بسبب أبي عاطف.

وروى لي كيف أنه ينام كل ليلة، خارج غرفته على باب العمارة، ليمنع أصدقاء الطلبة الذين يسكنون عنده، من زيارتهم بعد ساعات معينة من الليل، ومن يدخل ويتأخر، لا يستطيع الخروج من الباب الذي ينام عنده أبو عاطف، بعيني ذئب.

"لماذا لا تشتكوه لصاحب العمارة، ليطرده؟"

أجاب "هو قريب بعيد لصاحب العمارة، يثق به ويعتمد عليه."

ولكن مع ذلك، كان أبو عاطف يملك جاذبية غامضة لا تقاوم.

أوائل شتاء 2004

بدأت القصة، بعد بضعة أسابيع من وصول ابني إياد، وزوجته هند، وأولادهما الثلاثة إلى مصر، بعد سنة من الاحتلال. كنت عاطلة عن العمل، كما لم نجد لابني عملا مناسبا، حين قالت زوجته أنها تستطيع أن تساهم في مصاريف العائلة، كما فعلت أيام حصار العراق في التسعينات، بخبز الفطائر والكعك، وبيعها إلى المحلات.

هند، شابة عفية، ممتلئة، باسمة الوجه على الدوام ومهووسة بالنظافة. كانت تجبر أولادها على الاستحمام مرتين في اليوم، حتى في أيام البرد القارس. وكانت تغسل، وتكوي ملابسهم البيتية كل يوم.

وحين وصلتْ إلى بيتنا، في تلك المدينة النائية، وعلمتْ أني استأجر امرأة لمساعدتي كل أسبوع، لتنظيف البيت. طلبتْ أن أصرفها قائلة:

- أنا موجودة الآن، أليس كذلك؟

وهكذا كانت تصحو مبكرا كل يوم، تكنس وتمسح البيت، ثم تدخل المطبخ لتعد الطعام. وبعد أن تنتهي، تذهب إلى الحمام لغسيل الملابس. ملابسنا كلها. باختصار كانت كل ما أنا عكسه. ولهذا حين أبدت رغبتها في صناعة كعك الشاي المدور الصغير وبيعه، أسرعت إلى السوق، لشراء مستلزمات ذلك. الأطباق المصنوعة من فويل الألمنيوم، الاكياس النايلون الشفافة، للف المنتج، والشرائط الرابطة الملونة، لإضفاء لمسة جميلة.

أخذتْ أول مجموعة من 20 كعكة، إلى البقال القريب من البيت، وعادت وهي تكاد تطير من الفرح، حاملة عشرة جنيهات. قالت إن البقال أبدى سعادته، وامتدح عملها، قائلا لها إن التلاميذ الذين يشترون منه البسكويت، كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، سوف يقبلون على هذا الكعك البيتي اللذيذ، وطلب منها إعداد 50 كعكة أخرى لليوم التالي.

وتوالت الأيام، وتوالت طلبات البقال، ولكنه لم يعد يسلمها النقود فورا، وإنما بدأ يسوّف يوما بعد يوم. حتى عادت يوما من عنده، وهي تحمل نفس كمية الكعك التي أخذتها له في الصباح. كان القهر يرسم ملامحها.

- ماذا حدث؟

جلست تبكي.. ثم قالت وهي تنهنه، إنها لم تتعرض لمثل هذه المهانة، من قبل!

- ماذا حدث..؟

صرختُ بها.

لم يكتف البقال برفض أخذ الكعك منها فحسب، بل أخذها من يدها، وذهب بها إلى برميل الزبالة الكبير الموضوع في الأرض الجرداء المجاورة لمحله، وطلب منها أن تنظر في البرميل. قالت إنها فوجئت بعشرات من كعكها اللذيذ الذي تعبت في صناعته ولفه بالشرائط الملونة، في الأيام السابقة، وقد اسود واخضر من العفن.

- قال لي.. إنه اضطر أن يرمي كل ذلك الكعك، لأنه لم يجد أحدا يشتريه.

قلت لها، وقد جن جنوني:

- ولكن لماذا إذن كان يطلب منك، كل يوم، أن تصنعي المزيد من الكعك؟
- لا أدري.. لا أدري!

صباح عادي شتاء 2004

قلت لهند، وأنا أدخل من باب البيت:

- اشتريت أحسن أنواع الكاكاو.

أخذت قليلا على اصابعها، وشمته، ثم تذوقته بلسانها، واتسعت عيناها، وهي تنود برأسها، وابتسامة عريضة تملأ وجهها.

وسارت في ذيلي، وأنا أتجه نحو الكومبيوتر. نقرتُ على أزراره، وحركتُ الفأرة، حتى ظهر موقع الطبخ.

- أنظري هذه هي صورة الكعكة.

كانت الصورة تستحلب الريق. كعكة مدورة مغطاة تماما، بطبقة من الشكولاتة السائلة اللامعة.

- هذه هي المقادير.. البيض موجود.. الكاكاو موجود.. الحليب موجود.. عصير ليمونة؟ انظري هل بقي ليمون في الثلاجة؟ على العموم، ليس مهما الليمون.. لدينا الفانيلا.

كتبتُ المقادير، واتخذنا طريقنا إلى المطبخ. كنتُ أقرأ لها، وهي تقيس وتزن وتخلط.

- أوقدي الفرن قبل كل شيء. وبعد أن يسخن، ضعي الصينية لمدة 35 دقيقة. لا أكثر. اضبطي الساعة.

فيما كنا نتحدث، لم نر مصطفى، وهو يمد إصبعه في صلصة الشكولاتة المتبقية، ويلحسها. صرخنا -أنا وهند- في وقت واحد، في حين انتزعت ابنها من المطبخ، ورمته بعيدا. قلت لها قبل أن أغادر المطبخ في اتجاه غرفة المكتبة.

- ضعي الصلصة في مكان عال، لاتصل إليه أيادي الأولاد. بعد 35 دقيقة بالضبط، أخرجي الكعكة، وصبّي عليها بقية الصلصة، وادخليها الفرن، لمدة خمس دقائق. لا أكثر.

هزت رأسها، وهي تلحس أصابعها الملوثة بالشكولاتة. تغمس إصبعك، فيغوص في هشاشة ندية.. وحين تخرجها على مهلك، يسيل على طولها، ويقطر منها، سائل بني لذيذ، فلا تملك إلا أن تدفع إصبعك إلى فمك.

كانت أنجح مأكولات برديز، حتى إننا أطلقنا عليها اسم «كعكة الاحلام»، وقد راجت بين الطلبة، خاصة البنات. وكانت هند تخبز واحدة كل يوم، وكنا نقسمها إلى 12 شريحة، ولكن حين كنا نحسب حسابها، في نهاية اليوم، نجد أن هندا وأنا أكلنا نصف الكعكة. فمع كل طلب من زبون، كانت الواحدة منا، تقتسم لنفسها شريحة رقيقة جدا، لتلتهمها خلف الكاونتر. كانت الكعكة طرية وغارقة بصلصة الشكولاتة، حتى إنها كانت تذوب في الفم، قبل أن تصل البلعوم.

ومع كثرة الطلب على الكعكة، لم نسجل أي أرباح، فقد كانت تكلفة المواد عالية. وكنا نبيع القطعة بجنيهين، ونأكل أنا وزوجة ابني نصف الكعكة، وقد اكتشفنا فيما بعد، أن أحد مطاعم الوجبات السريعة، يصنع شيئا شبيها، ويبيع القطعة بسبعة جنيهات. لا عجب أن الشباب كان يسأل عنها، لابد إنهم كانوا يضحكون في سرهم، على هذه المرأة البلهاء التي كنتها. حتى لقد طرأت على ذهن أحدهم إقامة عيد ميلاد مفاجأة لصديقه في برديز، على أن تكون «كعكة الاحلام» نجمة الحفل.

حسبنا التكاليف مع عدد الضيوف وهل نترك الطلبات مفتوحة أم نحددها؟ قطعة من الكعك مع مشروب؟ وربما قطع من الفطائر العراقية التي تجيد هند صنعها؟

كان عيد الميلاد حدثا مهما في الكوفي شوب. وكانت الفكرة من بنات أفكار دكتور أحمد.

لم يكن أحمد مجرد زبون، وإنما كان زميل الصالون الثقافي الذي يقيمه كل ثاني إثنين من الشهر، ممثل ومخرج وكاتب مسرحي يساري قديم، يسكن في المدينة.

أحمد طالب طب، وافد من محافظة الإسماعيلية، ولكنه مضروب بالفن. كان يأتي كثيرا إلى الكوفي شوب ليفتح لي قلبه:

- حُلمي أن أكون ممثلا مشهورا والناس تنظر لي.
- لماذا دخلت كلية الطب إذن؟

يضع يده حول وجهه الممتلئ الاسمر، وهو يتنهد:

- لا خيار لي. أنا من عائلة كلها أطباء.. الأب والعم والخال، ولا يتخيل أحد من العائلة أو حتى أحد من الناس في الإسماعيلية أن أكون إلا طبيبا.
- طيب.. جربتَ أن تمثل؟
- لم تتح لي الفرصة!
- إذن كيف تعرف إنك تجيد التمثيل؟ أليس من الممكن أن تكون مثل من رقص على السلالم؟

يقول بحرقة:

- أنا أعرف.. أعرف.. إني سوف أكون ممثلا ومشهورا الفن في دمي.

ذكرى بعيدة تتعثر في دهاليز رأسي.. كم مضى؟ عشرون عاما؟ كانت هناك صبية اسمها ياسمين، تعرفت عليها في السويس. كنا نحضر عرس قريبة لها. وفجأة، حين عزفت الفرقة الموسيقية، بدأت ياسمين تتعرق وترتجف .

قالت:

- أبلة.. لا أستطيع الوقوف. لا بد أن أرقص. كلما سمعت موسيقى يرتعش جسمي، ولا يهدأ حتى أرقص. الرقص في دمي.

وفيما كانت تهرع إلى المسرح للرقص، على أنغام الفرقة الشعبية، فكرتُ حينها أن ياسمين ستجلب مصيبة على نفسها أو أهلها، في يوم من الايام. وتخيلت كل القصص الممكنة.. تهرب من البيت إلى عالم الليل؟ يضحك عليها أحدهم، ويجرها إلى عارها الأبدي؟ ولكن ياسمين انتهت نهاية كل بنت عادية.. تزوجت وأنجبت.

قال أحمد أنه يريد أن يكون عيد الميلاد، مفاجأة حقيقية، ولهذا لابد من تأليف قصة وإخراجها من أجل حبْك الدور.

- سوف نأتي، مجموعة الاصدقاء، ومعنا فتحي صاحب الميلاد، وكأننا نلتقي لشرب الشاي أو الشيشة هنا.

- لا تحمل هما.. اترك الباقي عليّ. أنا خبيرة مفاجآت. أريد فقط منك أن تشير إليه حتى أعرفه من بين أصدقائك.

وفي البيت، كانت هند قد حولت المطبخ إلى ورشة حقيقية، فقد أعلنت حالة الطوارئ. وكانت روائح الكعك والفطائر الشهية تتسلل إلى النخاع.

- حاذري أن تحرقي شيئا.. عيد الميلاد هذا إذا نجح، سوف تتوالى علينا المناسبات والعروض.

مساء يوم شتوي 2004

حين وصلت إلى برديز، كان قد حل الظلام، استقبلتني هند عاتبة:

- تأخرتِ عليّ، وقد خبّلني إياد، مرة يرسل الأولاد ومرة بالتليفون. تعرفين إنه لا يدبر شيئا بدوني.

وفيما كنت أعتذر، وتجمع هي أغراضها، غمزت لي بحاجبها باتجاه ركن بعيد في الكوفي شوب. أدرت رأسي إلى حيث أشارت. كانت «منة الله» غارقة بدموعها، وسط مناديل ورق مكورة، وأختها الصغيرة منال، غارقة وسط أصابع البطاطس المقلية، تغرز الشوكة بقوة في إحداها ثم تحشرها في فمها، دون أن يبدو عليها الاهتمام بدموع "منة الله".

همست هند:

- على هذا الحال منذ العصر. سأحكي لك كل شيء في البيت.

قالت هذا وغادرت مسرعة.

أول مرة رأيت فيها «منة الله» مع حبيبها محمود، أدركت القصة كلها، حتى بدون أن تسرّني بتفاصيلها، كما فعلت مع هند. كانت سمراء طويلة ونحيلة، ومن ملامحها الفاتنة اللعوب، كانت تبدو في العشرين من العمر. حين يدور نقاش حول المرأة، كنت دائما أقول أن العينين تكشفان سن المرأة، وليس أي شيء آخر. البعض يقول نعرفها من مرفقيها، وآخرون يرون أن الرقبة هي أكبر كاشف للسر الذي تحاول النساء إخفاءه، ولهذا لا تبطل موضة المنديل الذي يلتف حول أعناقهن. وفي كل مرة أقول لهم

جميعا: كلا.. أنظروا إلى العينين. قبل سن العشرين ترون فيهما براءة ودهشة وخوف ونظرات جانبية، مترددة وغير مباشرة، وبعد الثلاثين، تجربة واعتياد وجرأة واستخفاف ونظرة مباشرة ثابتة. كان لدى "منة الله" عينان رأتا كل شيء. اتضح فيما بعد، أن سنها لا يتجاوز السادسة عشر.

كانت تحاول مجاراة بنات هذا الجيل الموسرات: بنطلون جينز ضيق وبلوزة ملتصقة بجسدها تبرز تكور ثدييها، وشعرها مغطى بحجاب، لا يتناسب لونه مع أي من ملابسها التي يبدو عليها القِدم، وكأنها التقطتها من سوق البالات، ولكنه مع ذلك، لا يبخس جمال وجهها الخالي من المساحيق والاصباغ، الاّ خط الكحل حول عينيها. تقتحم الكوفي شوب رافعة الرأس ومعتدلة الظهر، وعلى ملامحها اعتداد وثقة. ولكن كل ذلك سرعان ما يختفي، بعد ساعة أو أكثر تقضيها في النقر على هاتفها المحمول، تستعجل وصول محمود. وأثناء ذلك تحل الفوضى في حركاتها، ينحني ظهرها، وتدور عيناها الزائغتان، ما بين الرصيف المقابل وامتداد الشارع الطويل. وحين يظهر الحبيب، تتضاءل إلى جانبه، حتى تبدو مثل قطة منقوعة بالماء، تلبد تحت إبطه.

لم تكن تظهر وحدها، وإنما ترافقها دائما «منال» شقيقتها التي لا تتجاوز العاشرة من العمر. وفي أول الأمر، ظننت أن الصغيرة هي الحارس الذي يبعثه الأهل مع بناتهن المراهقات، ثم اكتشفت أن منال تقوم بمهام اخرى خاصة بالحبيبين.

محمود.. كان شابا ثريا، كما يبدو، في منتصف العشرينات مع صلع خفيف بدأ يغزو مقدمة رأسه. يقود سيارة بي إم دبليو آخر موديل. وكان في أغلب الأحيان لا يأتي منفردا، وإنما محاطا

بحاشية من الأصدقاء والمريدين، يمشي بينهم بخيلاء، وهو الذي يدفع للجميع حساب طلباتهم.

كانت الفتاتان تظهران في برديز بين حين وآخر، تجلسان إلى منضدة، وتطلب منة الله بطاطس مقلية لأختها، وزجاجة كوكولا واحدة تقتسمانها، وأحيانا كانت ترسل شقيقتها في مهمة خارج الكوفي شوب، كأن تنتظر على الناصية ظهور سيارة محمود، في حين تنهمك هي في طلب الأرقام على الهاتف النقال بنفاد صبر.

كان هذا هو روتين العلاقة الذي يبدأ من برديز التي كانت - كما يبدو- محطة الالتقاء، والله وحده يعلم أين ينتهي .

كانت تأتي قبله، وتنتظر طويلا، حتى تبدأ في القلق، فتبعث أختها إلى هذه الناصية أو تلك، وتكاد هي أن تجهز على الهاتف، من شدة الضغط على الأرقام. وكان محمود يأتي دائما متأخرا، وكأنه دفع دفعا للمجيء.

يدخل عابسا، يطلب للفتاتين سندوتيشات شاورمة، ثم حالما تنتهيان، تسبقانه إلى السيارة، فيما يدفع هو الحساب. أو كان يدخل غاضبا يدفع حساب طلباتهما السابقة أيا كانت، ثم يغادر معهما فورا.

أين يذهبون؟ ولماذا تصطحب أختها الصغيرة معها؟ وماذا حدث مما استدعى كل هذا الحزن والدموع؟ جلستُ أقلب سجل المشتريات، وأنا أختلس النظر، بين حين وآخر، إلى منة الله. شعرت أني مسؤولة بشكل من الاشكال، وأن من الواجب أن أتدخل، ربما تقع مصيبة، والمحل على أية حال هو محطة اللقاء. ومن ناحية أخرى، فأنا امرأة لي من التجربة، ما أستطيع أن أنصحها أو أحل مشكلتها.

ذهبت إليها، وضعت يدي على كتفها:

- هل يمكن أن أساعدك؟ هل هناك مشكلة؟

هزت رأسها نفيا، وأمسكت بحقيبتها الصغيرة، وعبثت بداخلها، ثم نهضت وأشارت لأختها أن تنتهي بسرعة وسألتني:

- كم الحساب؟

كانت أول مرة، تدفع حسابها بنفسها. لم يظهر محمود ذلك اليوم.

يوم اختفت منة الله

أواخر شتاء 2004

جاء ذلك اليوم الذي لم أر بعده منة الله. كان آخر ظهور لها في برديز، حين دفعت منة الله الباب الزجاجي. قفزت إلى الداخل أختها منال، وخلفها امرأة ترتدي زيا شعبيا: جلبابا طويلا أسود وتغطي رأسها بشال أسود، وفي يدها تعلّق حقيبة يد صغيرة.

جلسن صامتات، في أحد الأركان في مواجهة التلفزيون. علقت المرأة عينيها في الشاشة، دون أن يبدو عليها الاهتمام بما يعرض عليها حقا. كان ذهنها مشغولا بشيء آخر.

الشمس على وشك المغيب. طلبت منة الله ثلاث زجاجات كوكاكولا، تناولتها مني عبر الكاونتر. ابتسمت لها وسألتها:

- الوالدة؟

أجابت بصوت خافت: خالتي

رفعت المرأة صوتها، وهي تعقب: "وبمقام والدتها الله يرحمها."

علمت فيما بعد، من هند أن أبا منة الله ومنال تزوج، بعد انتحار الأم بإشعال النار في ملابسها المنقوعة بالكيروسين. وأن زوجة ابيهما طردتهما من المنزل.

كانت الخالة تجلس متحفزة، تدير عينين منطفئتين حولها، وبين حين وآخر، تلكز منة الله، مشيرة إلى هاتفها النقال. ولكن لسبب ما لم تشأ منة الله استخدام النقال مثل كل مرة، وبدلا من ذلك

وضعت نصف جنيه بيد منال، طالبة منها الذهاب إلى البقال القريب لاستخدام التليفون.

أخذت البنت رشفة اخيرة من زجاجة الكوكاكولا، قبل أن تسرع إلى الخارج. كان يمكن لها أن تستخدم تليفون الكوفي شوب. لم أكن سأمانع هذه المرة، وقد بلغ بي الفضول مبلغه.

كانت منة الله وخالتها تتهامسان، أو تتحدثان بعينيهما، وأنا أضع رأسي بين يدي، أحاول أن أتكهن بما يجري.

لقد مضت أسابيع طويلة، منذ آخر لقاء بين منة الله ومحمود في برديز. وفي أول مرة، بعد هذا الغياب تأتي بخالتها معها. ماذا يعني ذلك؟

رجعت منال، واندفعت إلى مقعدها، في حين تقاربت الرؤوس الثلاث، وارتفعت غمغمات غير مفهومة، ثم توقفت فجأة، وران صمت.

لم يكن في برديز زبائن آخرون، وكان بين يدي كتاب أقلب أوراقه، دون أن أفهم كلمة واحدة. كان ذهني مشغولا بشيء آخر.

فجأة دبت حركة بين النساء الثلاث. وقفت منة الله، وحدقت فيما وراء الباب الأمامية، وتحسست المرأة ملابسها، وقبضت على حقيبتها بشدة، وندت صرخة دهشة عن منال، ونحن نسمع زعيق عجلات سيارة تتوقف، وهي في أعلى سرعتها.

انتظرنا أن يدفع الباب محمود. مرت الدقائق بطيئة، لكنه ظل واقفا قرب سيارته، يرفض كما يبدو الدخول. هل كان يريد أن يتحاشى موقفا فاضحا؟ أشارت منة الله لأختها الصغيرة أن تذهب لملاقاته، وحين فعلت وعادت، اتجهت منة الله إلى باب الخروج،

وذهبت إليه. كنت أراها واقفة في مواجهته، تحدثه، وتشير بيديها، مرة إلى الكوفي شوب، ومرة إلى مكان ما بعيد.

بعد قليل، عادت منة الله وحدها، وقالت شيئا للخالة التي نهضت، وتهادت بإصرار نحو الباب تتبعها البنتان.

ركب الجميع السيارة، ولكن بعد لحظات، جاءت الصغيرة تعدو، قائلة وهي تلهث:

- هذي فلوس الكاكولا.

ووضعت 3 جنيهات على الكاونتر.

أصيل يوم جميل

في اوائل ربيع 2005

قبل قليل غادرتني صديقتي فاطمة وزوجها الجديد نافع، وابنتاها رانيا ورباب. جاءوا منذ الصباح، محملين بالفسيخ والخس والبصل الأخضر، اليوم جمعة، وليس هناك زبائن من الطلبة الوافدين الذين يقضون أيام الإجازات في محافظاتهم. وهكذا كان الكوفي شوب منتجعا خاصا بنا. وضعنا المناضد لصق بعضها، داخل المحل. وتحلقنا حولها .

فجأة خلع زوجها الذي بالكاد اعرفه، سترته وقميصه، وجلس بالفانيلا الداخلية، قائلا إن هذه أفضل طريقة لتناول الفسيخ. تلفتُّ مرتبكة، أتطلع إلى الشارع، خشية أن يأتي زبون تائه. كان المنظر محرجا جدا، والمحل يحيطه من جانبيه الزجاج.

ضحكت فاطمة، ولم يبد عليها أي حرج. حتى حين تذكر زوجها أغنية ما، فترنم بها هازا كتفيه العاريين على ايقاعها.

كانت هذه زيارتهم الأولى والأخيرة للكوفي شوب. قالت فاطمة إنها مثل رحلة خلوية، وهتفت قبل إنهاء المكالمة «علينا الأكل وعليك المشروبات». وكانت الفكرة أساسا أن يقدم لي زوجها المحاسب في مطعم سياحي كبير، بعض نصائح السوق، وأفكارا للثراء.

كانت قد حدثتني كثيرا عن زوجها المتدين، والذي لا يفوت فرضا في الجامع القريب من البيت. وكانت قد تزوجته بعد عشرين سنة، من وفاة والد ابنتيها. القصة المعتادة، كرست حياتها

لتربية البنتين، رفضت كل فرص الزواج، وهي أرملة في العشرينات من عمرها، جميلة، ومرحة، وبنت بلد. ثم أخيرا صادفت نافعا، وكان متزوجا من ابنة عمه، وقصته معتادة ايضا، كما يرويها كثير من الرجال فوق سن الاربعين، فزوجته لا تفهمه، والعلاقة بينهما أصبحت شبه مستحيلة، لكنه لا يستطيع ان يطلقها، لأنها ابنة عمه.

بعد أن لملمنا القشور، وبواقي الخبز، وارتدى نافع قميصه، أمسك بورقة وقلم، وطلب أن يرى دفتر المشتريات، والمبيعات. وسألني عن أسعار الطعام والمشروبات.

قال، وهو يلقي نظرة سريعة على كل ذلك، مع رشفات متأنية، من قدح شاي:

- لا عجب أن تخسري. ساندويتش البيض المسلوق، والبيض المقلي بنفس السعر؟ أين ثمن الزيت والغاز أو الكهرباء؟ ثم من أين تشترين اللحم؟

قلت:

- من الجزار على أول الشارع.

ضحك، والتفت إلى فاطمة التي ضحكت بدورها، وقالت لي:

- أصحاب أفخم المحلات يشترون مكعبات اللحم المجمدة المستوردة، وسعرها ربع أو نصف سعر الجزار.

أضاف زوجها:

- ومع هذا فأسعارك رخيصة جدا، لا تغطي ثمن المواد، ولا يمكن أن يطمئن أي زبون لجودة تلك المواد. مثلا أنت تشترين كيلو اللحم ب 40 جنيها، وتبيعين ساندويتش الكفتة بثلاثة جنيهات؟ هل هذه نكتة؟ هل تقدمين لحم قطط أو لحم كلاب؟

وعلى هذا المنوال، ظل الرجل يسخر من كل فقرة في قائمة المأكولات، وأخيرا رفع قدح الشاي، وسألني:

- بكم قدح شاي لبتون هذا؟
- جنيه واحد
- يعني أقل من سعر أي مقهى على الشارع؟

تطوعت، وقلت له يائسة:

- والشاي الكشري عندنا بنصف جنيه.

صاح وهو يضرب رأسه:

- يكفي.. يكفي. اسكتي.... سوف أكتب لك قائمة جديدة، بأسعار أخرى حقيقية.

لم أشأ أن أحبطه، فأقول له إن الوقت قد فات لأي تغيير، وإن ما لدي من مال، لن يكفي أن أدفع إيجار أكثر من شهر واحد قادم. هل أنتظر أن تحدث معجزة؟

رمضان 2004

كان رمضان ضربة حظ غير متوقعة، فقد توافق مع امتحانات نصف العام، وهكذا لم يسافر أي من الطلبة إلى خارج المدينة، ليقضوا أوائل وأواخر شهر الصوم مع العائلة. هذه التفاصيل لم أعرفها طبعا إلا بمرور الأيام، أقصد الطلبة والاجازات. فهذه المدينة التي تدور حياتها، على وجود جامعتين أهليتين فيها، والعديد من المعاهد الخاصة، التي لا يقدر على أجورها إلا أثرياء المصريين أو أبناء العرب، كانت تشحب، وتكاد يغمى عليها في الإجازات القصيرة.. تصرف المطاعم عمالها الموسميين، وتقفر محلات اللوندري، وتشكو المقاهي من الفراغ، وتبور مكاتب الإنترنيت، وتتعطل مكتبات النسخ والترجمة. أما إجازة الصيف التي تمتد إلى ثلاثة شهور، فقد كانت المدينة تسد أبوابها، وتدخل في سباتها.

كان أمامي أسبوعان على افتتاح الكوفي شوب في أول أيام رمضان. لم يكن هناك وقت طويل لتبادل الأفكار مع ابني وزوجته. كانت مفاجأة عظيمة، حين دخلت يوما وأنا ألوّح بمفتاح، وأقول موجهة الحديث لهند:

- أصبح لديك مطعمك الخاص، تعرضين فيها كل ما تريدين من مأكولات.

حدقت فيّ بعينين مدهوشتين، قبل أن تنفرج شفتاها بابتسامة عريضة، وهي تنود برأسها تتابع كلماتي. وبدا إياد فاتر الحماس.

ولكن سرعان ما جلسنا لنضع خطة سريعة. الوقت رمضان، وهذا يعني أن العمل في الكوفي شوب سوف يبدأ بعد الإفطار.

وبما أن المطعم جديد، فلا أظن أن أحدا سوف يتناول فطوره فيه. نركز إذن على المشروبات الشعبية. وما رأيكما في تجهيز سحور للطلبة؟

حساء، وفول مدمس، ولبن رايب، وبيضتان مسلوقتان أو مقليتان (حسب الطلب) ونوعان من الجبنة، وقطعة حلويات، وعصير قمرالدين، والكثير من الخبز.. كل ذلك بخمسة جنيهات.

كانت فكرة السحور أفضل ما فعلناه، شهدنا زحاما لا يصدق، كانت الكراسي تمتلئ في الداخل، وتمتد إلى خارج المحل، والطلبة يسهرون إلى لحظة الإمساك، وعندها يغادرون إلى الجامع القريب، نقفل الأبواب، أنا وهند، ونتمشى إلى البيت القريب.

وكنت كل يوم، آخذ قِدرة فول صغيرة، من مطعم (العودة) قبل ان يقفل نهائيا. ثم في أواخر رمضان، خطرت لي فكرة أن أدمّس الفول في البيت، فاشتريت قِدرة متوسطة الحجم. وصار المشهد في تلك الأيام، هو الذهاب والاياب بقدرة الفول من وإلى البيت.

في أحد الأيام، وكنا على وشك أن نغلق الكوفي شوب، وقد غادر الجميع قبل الإمساك بدقائق، حين جاء أربعة شبان، وطلبوا سحورا سريعا. هل يمكن أن تجهزوا الطعام في خمس دقائق؟ كل شيء جاهز.

جلسوا بين الكراسي المقلوبة فوق بعضها خارج المحل. وبين صيحات الشباب، وضحكاتهم وهم يسرعون في التهام الطعام، قبل أن يعلن المؤذن الإمساك، أطلت مدام محاسن من نافذة شقتها العلوية، وقالت بامتعاض:

- يكفي هذا الضحك، احترموا الناس النائمة.

طفح الكيل. نظرتُ اليها، وقلت بغضب:

- وهل هذا وقت نوم؟ أليس هو وقت صلاة الفجر؟

سكتت، واختفى رأسها من النافذة، وبعد قليل حين هبط زوجها للذهاب إلى الجامع، عاتبته قائلة:

- ألا تفرحون أن هؤلاء الشباب، ملتزمون ويصومون؟

لم ينظر إلي مباشرة، وإنما قال، وهو يتلفت حوله:

- مع هذا، كان صوتهم عاليا، وكانت المدام تخشى أن يستيقظ "إسلام"

ولم تكن هذه هي المرة الأولى، ولا الأخيرة، فقد كانت محاسن لنا بالمرصاد. أية نأمة، أي صوت، في أي وقت من اوقات النهار والليل، يطل رأسها غاضبا، طالبة من الجميع السكوت، لأنها لا تعرف أن تنام. هل تنام في كل وقت؟ كنت أسأل نفسي.

وقد بلغ غضبي مداه، حين أخبرتني هند، في أحد الأيام، وكنا حينها نتناوب، في إدارة الكوفي شوب. هي في النهار، وأنا من بعد الظهر، وحتى ساعة متأخرة من الليل، أن بعض الطلبة، وبينهم فتاة كثيرة الضحك، كانوا يجلسون، يتسامرون في الخارج، حين أطلت عليهم مدام محاسن، وعنفت البنت، وأعطتها درسا في الأخلاق، وفي حرمة صوت المرأة، وقلة الأدب في الضحك من غير سبب.

قالت هند، أن الشباب انتقلوا بعدها، إلى داخل المحل، يدارون خجلهم، ثم سرعان ما سددوا الحساب وغادروا.

منذ تلك الحادثة، تربصتُ بها، وكنتُ قد وجدتُ على الأرض، قرب باب الكوفي شوب، بعض ملابس رضيعها، وبعض المشابك قد سقطت من حبل الغسيل، فاحتفظت بها لتكون بادرة حسن نية. وفي أول فرصة رأيتها قادمة، حاملة ابنها إسلام، حييتها ودعوتها

للجلوس في الكوفي شوب، وكان خاليا. قدمتُ لها الوديعة، وقلتُ لها بهدوء:

- أعتذر لأي إزعاج أسببه لك، ولكن يجب أن تعترفي، بأننا ليس مثل أي مقهى، فلا نضع مسجلات، أو مكبرات صوت، تذيع أغان سخيفة..

قاطعتني:

- ولكن صوت التلفزيون يصل الينا.

- هذا التلفزيون؟ ولكنه كما ترين، في داخل المحل وليس خارجه، وصوته معقول، ولا أظن إنه يصل اليكم.

- بل يصل إلينا، حتى أن ايقاع بعض الاغاني، يدق في رأسي وكأنه داخل الشقة.

- ماذا تقترحين؟ نقفل المحل؟ نسكت الناس؟ نترك البلد؟ قبل أيام أخبرتني هند أنك وبخت زبونة، لأنها كانت تضحك.

- صحيح. صوت المرأة عورة. وعيب أن تضحك بصوت عال.

كان من الصعب جدا، أن اكبح غضبي، ولكني قلت بصوت، حاولت أن أسيطر عليه:

- هذا الكوفي شوب مكان للرزق، وليس مدرسة لتعليم الاخلاق. لا أستطيع أن أطلب من الزبائن، وهم كما ترين نادرون، أن يصمتوا أو يخفضوا صوتهم، أو يمتنعوا عن الضحك.

قالت دون أن تطرف عينا:

- إذا كان الأمر كذلك، أطلبي منهم أن يجلسوا في الداخل، وليس في الخارج، حيث تصل أصواتهم إلينا.

- أريد أن أسألك سؤالا: حين اشتريتم الشقة، هل كان المحل موجودا أم لا؟

- كان موجودا.

- لماذا إذن اشتريتم شقة، فوق مقهى؟ والمدينة مليئة بالشقق الفارغة، والعمارات الجديدة الطالعة؟

"كانت غلطة"، قالت مدام محاسن، وهي تحتضن طفلها، وتخرج باتجاه باب العمارة.

لو كنت أعرف أن صفقة الكوفي شوب، تشتمل على مدام محاسن، وأبي عاطف.. لكنت فكرت مرتين.. كانت غلط!

ولكن الصفقة شملت أيضا رجلين آخرين، عرفا الطريق إلى برديز بأسرع مما تصورت.

** * **

أول ما وقعت عيناي عليهما، عرفت هويتيهما، حتى قبل أن يبدأ أحدهما، بطرح كل تلك الأسئلة الفضولية.

كنت أنتظرهما منذ أول يوم، مدركة، إنه لابد أن يظهر أحد ما، يوما ما، لاسيما بعد أن علقتُ رفوفا وضعت عليها كتبا محايدة، وروايات رومانسية، ومغامرات خارقة، وبعض الصحف اليومية.

كانت المكتبة الصغيرة، آخر مناوراتي لاجتذاب زبائن، قد يفضلون أن يشربوا قهوة مع جريدة الصباح.

قال المتحدث منهما، إنهما طالبان في كلية الهندسة، ولكنهما في عيني، كانا سيدا وتابعا. السيد هو الذي يسأل، ويستطرد، ويناور، والتابع صامت، لكنه يدفع الفلوس في النهاية.

لم يكن عليهما سيماء الطلبة، ثم إنك تعرف هويتيهما من العيون. فمهما أجاد انسان المباحث ارتداء أقنعة: الطيب أو المرح أو المهرج أو الجاد أو الحزين أو الغاضب أو المتسامح، فهو لا يستطيع أن يضع حجابا على نظرة عينيه.. مهما كانت لغته، من أية بقعة من بقاع الأرض منبته. إنهم يملكون نظرة واحدة تخترق أعماقك، تبحث في رأسك عن نواياك، تسبر غور خفاياك، تقيمك وتزنك. حتى لو كان غارقا في ضحكة عالية لنكتة قلتها، قالها.. تظل العينان ثابتتين، تقيسان طولك وعرضك.

سرعان ما أصبح الرجلان أفضل زبائن الكوفي شوب، فقد كان محسن، المتحدث، يطلب له، ولصاحبه عددا لا يكاد ينتهي من السندويشات، كلما التهما ما في طبقيهما، طلب محسن المزيد، حتى يكتفي من الاستجواب المغلف باللامبالاة، والثرثرة العرضية. كانا يأتيان على فترات متباعدة، ولكن كانت اطلالتهما، مرحَبا بها دائما، فمعهما ينفد خزين الخبز، وشرائح الدجاج.

يبدأ الحديث بالتعليق على أخبار العراق في ذلك اليوم، وما هو رأيي بصفتي عراقية؟ وهل هناك عراقيون آخرون يعيشون في المدينة؟ وكيف هي علاقتي بهم؟ آآه، هذه كتب جديدة؟ هل هي للبيع؟

كلا؟ رائع!

يذهب لتقليب الكتب: هل فيها كتب عراقية؟ كلها مصرية؟ كلها إصدار هيئات مصرية رسمية؟ الموقف الرسمي المصري ليس بالمستوى المطلوب، أليس كذلك؟ لكنك تعتقدين إنه ليس في الإمكان أفضل مما كان؟ غريبة! ولكن هل العراقيون فعلا يحبون صدام حسين؟ ما رأيك به أنتِ؟ أوه، أرى أن الساعة التي ترتدينها

عليها صورته! غباء مني أن أسألك عن رأيك فيه، أليس كذلك؟ ها..ها.. ها. ساندويتش آخر لو سمحت، يونس.. واحد آخر لك؟ اكتفيت؟ معقولة؟ اجعليهما إثنين لو سمحت.

كان يفضل أن يجلس على الكرسي بدون ظهر القريب من الكاونتر، ليحاصرني بحضوره المهيمن، وأنا محشورة في فضاء المطبخ.

يوم غاضب نهاية 2005

أقضي معظم الصباحات أدور في سيارتي، بين الأفران وأسواق بيع اللحم والخضروات والفحم والبقالين والعطارين. وحين أعود إلى الكوفي شوب، وقبل أن أوقف السيارة أراهما جالسين في الداخل يتحدثان. أبو عاطف يرتشف من قدح شاي، وهند تجلس إلى نفس المنضدة تتحدث كما يبدو حديثا لا ينقطع. وما أن ينتبه أبو عاطف إلى أن سيارتي قد توقفت، يأخذ قدحه ويتسلل خارجا، باتجاه غرفته عند باب العمارة.

أدخل عابسة، وقبل أن أضع ما أحمله، أقول لها بجفاء:

- ألم نتفق ألا يدخل هذا الرجل المحل؟

لم أسألها أبدا عما يتحدثان. وأنا أكتب هذه اليوميات الآن، وهي بعيدة آلاف الاميال، اشعر بالندم أني لم اسألها في حينها، ربما كانت ستغطي عدة صفحات هنا. ولكن هندا كانت تجد دائما أعذارا مقنعة، حتى أني كنت أبدو – إذا رددتُ عليها – شديدة التجني.

- دفع حساب الشاي. ومن حقه أن يجلس يشربه كأي زبون.

- طيب، يشرب شايه، ويغادر ولكنك كما يبدو، تفتحين معه مواضيع طويلة.

- أبدا والله.. كان يحدثني عن مدام محاسن.

- ماذا فعلتْ ايضا؟

- لا.. شيء.. تريد أن تبيع شقتها.

- أحسن.

وينقطع الحديث بيننا، حين تبدأ هند في لملمة حاجياتها، لتعود إلى البيت. وتسألني قبل أن تخرج:

- أرسل إليك الغداء؟
- كلا سوف آكل أي شيء هنا.
- طيب.. يمكن أن آتي مرة اخرى، بعد إطعام الأولاد، وأبيهم.

بمرور الأيام، اكتشفتُ أن الزبائن يكثرون، حين تكون هند في المحل. وأنها على سذاجتها أحيانا، وقلة خبرتها، وجهلها بأمور كثيرة، كانت تعرف كل شيء، عن كل زبون، قصة حياته وأحلامه، وعلاقاته مع أهله وأصدقائه، ودرجة القرابة، بين واحد وآخر، بل أنها حتى أقامت نوعا من العلاقة الوثيقة بأم عاطف. كانتا كلما التقيتا وأكون على مسمع منهما، تصل إلى عبارات الترحيب، والود، والدعاء بين الاثنتين. أم عاطف؟

أكثر من ذلك، بدأت شيئا فشيئا، تتكشف لي أمور تفعلها هند في الكوفي شوب، مما لا تخطر على بال.. كان بعض الزبائن يأتون بساندويتشات اشتروها من مطعم أبي سامر السوري، أو غيره، ليجلسوا على الكراسي، يأكلونها مستمتعين بدفء الشمس. وآخرون يحملون إليها عبوات قهوة سريعة، طالبين منها ماء ساخنا فقط. والطامة الكبرى، كان الطلبة الساكنون في نفس العمارة، يأكلون بشهية، مؤجلين الدفع، حتى تصل حوالات المصروف، من آبائهم، آخر الشهر.

- وكم حساب الماء الساخن؟ هل تحسبين الماء الساخن؟ هند.. لماذا تظنين أن لدينا تلك الآلة لإعداد الكابتشينو، والإسبريسو، والنسكافيه، والكاكاو؟

تغمغم بشيء غير مفهوم.

- وماذا إذا تملص الطلبة من الدفع آخر الشهر؟

- لا.. لا.. سيدفعون.. أنا أعرفهم.

- هند.. هل تعتقدين إني أجلس على كنز؟ من أين أدفع الإيجار، وأشتري المواد، إذا لم يكن لدي سيولة؟

ربما كانت تعتقد أني أجلس على كنز، فقد كنتُ، كل يوم، أقوم بتلك الجولات التسوقية.. أشتري وأشتري وأشتري دون تذمر. كل يوم نحتاج شيئا.. لا تنسي الحليب. تبغ التفاح نفد. هذه آخر قطعة همبرجر لدينا. الزيت على وشك. والصابون السائل.

وكنتُ قد اكتشفت حكاية الماء الساخن، حين اشتريت يوما عبوات كاباتشينو جاهزة، اخذتها إلى البيت، وبدأت أشرح لها كيف تعدّها من اجل إياد زوجها، بدون استخدام الآلة الخاصة بذلك مثل التي لدينا في الكوفي شوب. فقالت بدون تردد:

- أعرف، أعرف.. الزبائن يأتون بها إلى المحل.

يوم غاضب آخر 2005

دق جرس هاتف الكوفي شوب، سمعت صوتا مهذبا رقيقا:

- صباح الخير.. أنا ماريان. كيف الحال؟ هل يمكن أن أكلم أمي؟
- الرقم غلط.
- أليس هذا كوفي شوب برديز؟
- نعم هو.
- هل يمكن أن أكلم أمي؟ أم عاطف!

كان أول رد فعل بعد الدهشة.. أن قلت لها "آسفة.. عندي زبائن ولا أستطيع أن أذهب لإبلاغها. ولكني سأقول لها إنك تكلمت"

لم يكن في المحل سواي، ولم أخبر أحدا بالمكالمة. قلت لنفسي: هذا ما كان ينقصني، في حين أحاول أن اقطع رجل أبي عاطف عن المكان، تأتيني تليفونات أم عاطف هذه المرة.

أوائل 2008

توقفت بالسيارة أمام برديز. كانت هناك لافتة ملصقة على الواجهة الأمامية "للبيع أو للإيجار" إلى جانب كلمات Happy New Year 2007 مخطوطة باللون الابيض على زجاج الواجهة منذ عام مضى.

اختفت ثلاث شجرات كالبتوس باسقات، كن يلقين بظلالهن على الممر أمام برديز، وكنت قد طوقت أكبرهن، بحبل من مصابيح صغيرة ملونة مثل الخرز. وكان ثمة كومة من تراب أصفر يعلو ما كان أحواض خضروات زرعتها.. البقدونس والجرجير والبصل الأخضر والنعناع.

حلم طفولتي في امتلاك مزرعة حيوانات، اختصرته بمرور الزمن، إلى امتلاك افتراضي لقطعة أرض، أزرع فيها طعام يومي. أن أرى نبتة النعناع، وهي تشد عودها، وتتشبث بالأرض سنة بعد اخرى، وأن أرقب أوراق الباقلاء تزهر بالوعد كل يوم.

كانت هناك بضعة أمتار، من أرض جرداء الى جانب الكوفي شوب، بين سيقان الكالبتوس. أتيت بأحد حراس العمارات الجديدة الطالعة، وكان في الأصل، مزارعا في الفيوم، هجر أرضه التي لم يمتلكها يوما، إلى هذه المدينة.

شق الرجل أحواضا، ونثر البذور، وعلمني كيف أرويها كل يومين. ولم يمض وقت طويل، حتى شقت الارض، وريقات خضراء واعدة. ولكن ذلك كان في أوائل الربيع، قبل أن أقفل المكان، وأسلم مفتاحه لصاحبه، بأسابيع قليلة.

الآن يبدو كل شيء مهجورا. لا أشجار.. لا شيء أخضر.. بل كوم رمل أصفر.

كلما قُطعتْ شجرة، أتذكر شجرة حي المهندسين، التي سالت دما قانيا، حين اجتثثْ، مما أرعب عمال البلدية، فامتنعوا عن حمل أشلائها، في سيارة النقل الكبيرة التي جاءوا بها.

كانت الشجرة تشمخ عاليا منذ ثلاثين سنة – هذا ما قيل عن عمرها- أمام باب فيلا اشتراها أحدهم حديثا. كانت الشجرة تلقي بظلال أغصانها الوارفة، على امتداد الشارع، لكن المالك لم ير فيها إلا أنها تقف في المكان الذي ينبغي أن تقف فيه سيارته. وهكذا خاطب البلدية لقطع الشجرة، من جذعها الممتد تحت اسمنت الرصيف.

فجأة، حين وصل العمال بشاحنتهم، نبعت وسط الشارع، امرأة وضعت يديها على خصرها وقالت إنها رئيسة جمعية رعاية البيئة، وأنها لن تسمح بقطع الشجرة، فهي ليست حتى شجرة عادية إذ أن الشارع ذاته، يؤرَخ بها.

ارتفع صوت المرأة عاليا، والعمال ينظرون إليها ضاحكين، في حين وقف صاحب الفيلا صامتا أول الأمر، ثم بدأ يستحث العمال، للانتهاء من المهمة.

هددت المرأة برفع شكوى قضائية. قال لها الرجل بهدوء:

- يا سيدتي... افعلي ما بدا لك. اذهبي واشتكي لأكبر رأس في البلد. ولكن ابعدي عن طريقي الآن.

ثم غطى صرير المناشير، وضربات الفؤوس، بيد العمال الذين تكالبوا على الشجرة، على صوت المرأة التي ألقت آخر ما لديها من وعيد، واختفت من الشارع.

كان بعض العمال قد تسلق فروعها المتشعبة، وبدأوا يقطعونها من أعلاها، وآخرون يعالجون أسفلها، ولكن سرعان ما أصاب الجميع، رعب شديد. كان كل فرع يُقطع، ينزّ سائلا أحمر، يسيل على الأرض، مثل دم قتيل. كانت كل شظية من الشجرة، تتناثر من بين تروس المناشير او أنصال الفؤوس تسيل دما حتى امتلأت الارض، بركا من الدماء القانية.

كنت قد احتفظت بقطعة صغيرة من الشجرة، وقد تجمد الدم عليها، ولكني سرعان ما رميتها، بعد أن سمعت ما حدث لصاحب الفيلا. لم تمض أيام، حتى لقي حتفه في اصطدام سيارته بشجرة ضخمة، حولت سيارته إلى أشلاء حديدية ملتوية. وبعد أسابيع، احتل الفيلا ملاك جدد.

بحثت بعيني عن أبي عاطف، وأرهفت السمع علني أسمع صوته الهادر، ولكن العمارة ذاتها، كانت تبدو كأنها اخليت من سكانها. بالتأكيد هناك تفسير علمي لدماء شجرة المهندسين، ولكني أفضل التفسير الذي يبعث القشعريرة في عمودي الفقري.

هل هاجر الناس من برديز والعمارة؟ أخرجت هاتفي النقال، وطلبت الرقم المكتوب على لافتة (للبيع أو الايجار).

- هل تذكرني ؟ استأجرت برديز قبل ثلاث سنوات؟
- أهلا، أهلا.. طبعا.. كيف أنسى؟
- كنت أريد منك خدمة.. أنا أقف أمام برديز الآن. هل يمكن أن تأتي، ومعك المفتاح؟
- الآن؟ طبعا.. في خلال ربع ساعة. خير؟
- سوف تعرف حين تأتي.

أراهن إنه يفكر الآن في الشيء الذي أظن إنه يفكر فيه!

ربيع 2005

لبرديز بابان، أحدهما رئيسي، يواجه الشارع، ويفضي إلى الصالة الصغيرة، وفيها ستة مناضد مدورة حديدية، يحيط بكل منها، كرسيان من الحديد ايضا، بمقاعد من الجلد الاسود، والباب الآخر جانبي، تدخل إليه من ممر ضيق، يطل على المنخفض الهائل الذي سيكون حديقة عامة في يوم ما، ويفضي إلى ما يمكن تسميته المطبخ. البابان من زجاج سميك، مثبتان في جدارين من الزجاج ايضا. المطبخ جزء من الصالة، يفصله عنها كاونتر من الرخام، موضوع عليه

آلة صنع القهوة السريعة والشاي والكابتشينو والكاكاو، والأكواب الصيني، مقلوبة على أطباقها، في انتظار الزبائن. وهناك حامل لملاعق صغيرة وسكريات، ومناديل ورقية. ويحوي المطبخ أيضا وحدة قلاية وشواية وفرنا صغيرا، إلى جانب آلة الشاورمة التي لم نستخدمها إلا بضعة مرات، وفي كل مرة، كان الأمر ينتهي بأن أدعو إياد وهند والأولاد، إلى حفلة سندوتشات الشاورمة التي لم أستطع بيعها كلها.

لا بد أن تلك كانت أجمل ذكريات الأطفال الثلاثة، مصطفى وسحر وسارة، حيث يجلسون، يؤرجحون سيقانهم، من الكراسي في مطعم حقيقي، ويأكلون كل ما يستطيعونه من الشاورمة، مع مشروبهم المفضل. كان في المطبخ الصغير، ثلاجة خاصة بالمشروبات الغازية، عليها صورة دعائية للشركة التي استودعتنا إياها على سبيل الامانة، بشرط أن نقتصر على شراء مشروباتها

الغازية، ولكننا استخدمناها أيضا لتخزين مواد غذائية، وزجاجات المياه والخبز، وأشياء اخرى.

لمحت أبا عاطف قادما نحو الباب الخلفي، حاملا قدح شاي فارغا، وكنت قد عودته على أن يأتي بقدحه، لأملأه له شاي يومه مجانا، وبذلك أضمن ألا يجد حجة للجلوس، داخل الكوفي شوب. كان الوقت مازال مبكرا، وكنت قد فتحت المحل لتوي، ولم أسخن الغلاية بعد. كان يبدو عبوسا، وهو يتقدم نحو باب المطبخ، وكنت متعكرة المزاج بسبب شيء ما، لا أذكره الآن.

فتح الباب عنوة، ومد لي قدحه صامتا، فقلت له إني لم أسخن الماء بعد.

- انتظر عشر دقائق.

خطف القدح من يدي، وقال:

- لا أريد. الله يلعن الشاي..

- اسمع.. هل تظن إني أبخل عليك بالشاي؟ ألا ترى إني وصلت قبل دقائق؟

كان قد استدار، ومشى بضعة خطوات، ثم عاد وقال بغضب:

- لماذا حين تطلب ابنتي أمها، تغلقين التليفون في وجهها؟

- هل قالت لك ذلك؟ لم أغلق التليفون، وإنما قلت لها أني مشغولة.

ارتفع صوته مبحوحا، وعيناه تقدحان شررا:

- مشغولة؟ كان يمكن أن تنادي عليها، وأنت في مكانك.

- تصاعد الغضب في صدري، وهو يخاطبني، بنفس الصوت الذي يصرخ به على أم عاطف. رفعت صوتي، وأنا أقول له:

- اسمع.. هذا تليفون المحل. وأنا حرة في تليفوني. الأفضل أن تقول لابنتك ألا تتصل هنا مرة أخرى.
- أنت امرأة...
قاطعته، وأنا أخشى أن يشتمني، فلا أستطيع رد إهانته:
- لا تغلط، وتكلم بأدب..
- امرأة غير طيبة..
ومضى مغمغما، فعاجلته بصوتي:
- إياك أن تضع قدمك هنا مرة أخرى..
قال بصوت مسموع، وهو يبتعد باتجاه باب العمارة:
- ولا أريد منك شيئا.. لا شاي ولا غيره.

** * **

حين جاءت هند في منتصف النهار، لتحل محلي، ريثما أذهب للسوق، بادرتها:
- لقد رفع أبو عاطف، اليوم، صوته عليّ.
وحكيت لها ما جرى، وهي تومئ برأسها، وعيناها مفتوحتان، على عادتها، حين تصغي إلى المتحدث.
- لن أكرر عليك. لا أريده أن يدخل المحل مرة اخرى.
- لا طبعا.. لا أستطيع تصور أن يصدر ذلك منه.
لم أسألها -حين عدت- عما جرى في غيابي، ولكني لم أجد له أثرا. قلت مع نفسي «رب ضارة نافعة». فأنا أكره المصادمات، وبالتأكيد ما حدث صباحا كان شيئا سخيفا، ولكن ربما ذلك، هو ما سوف يقطع رِجل أبي عاطف عن برديز.

ولكن في الأيام التالية، خاب ظني، عندما بدأت أراه جالسا على الكراسي في الامتداد الخارجي للكوفي شوب، يشرب الشاي، واضعا ساقا على ساق، وأحيانا يكون مع واحد أو إثنين آخرين. ثم عرفت أنه يتخذ الآن من كراسي الكوفي شوب الخارجية، مستقرا له، يصرف فيه شئون بُوابة العمارة.

قالت هند تدافع عن نفسها:

- هو لم يعد يأتي بنفسه، وإنما يأتي واحد غريب، ويجلس في الخارج، ويطلب شايا أو قهوة. بعد قليل يأتي أبو عاطف ويجلس معه. من أين أعرف أن هذا الواحد، هو صاحبه، أو الكهربائي الذي جاء ليصلح أعطالا؟

** * **

ولكن الذي قصم ظهر البعير، كان حادثة الباب الزجاجي. في يوم خريفي من العام 2005، وقد هبت عاصفة ترابية، مصحوبة ببرد شديد. كنت وهند نجلس وحيدتين، على مقعدين متباعدين، ننتظر زبائن لا يمكن أن يظهروا في هذا الجو الكئيب. قررتُ أن أذهب إلى البيت لأمر ما، قلت لها:

- سأعود بعد ربع ساعة.

حين عدت كان المربع الزجاجي، بدون باب. أقصد أن الباب كان هناك مكوما على الأرض، في آلاف القطع التي لا تزيد مساحتها عن سنتمتر واحد. وكانت زوجة ابني واقفة تهذي:

- الهواء أخذه من يدي.

وظلت تعيد هذه الجملة، وأنا أمسك المكنسة، وتكررها، وأنا أجمع آلاف الشظايا الكريستالية الصغيرة.

- أخذه الهواء.. من يدي.

لم أجبها، كنت احاول أن ألم الزجاج في كيس قمامة، وفي رأسي يدق صوت أمي:

"هند.. هذه، يدها حامية.. تكسر كل شيء"

- كيف أخذه الهواء من يدك؟

وأخذت تحلف بكل عزيز عليها، أن ريحا قوية أطارت الكرسي المصنوع من البلاستك من مكانه، أمام الكوفيه، واسقطته في المنخفض المحاذي للمحل، فهرعتْ لاستعادته، وما أن فتحت الباب، حتى أخذه الهواء من يدها.

- هل تعرفين كم سيكلفنا هذا؟

يوم مشمس في شتاء 2008

اقتربت السيارة من السلم المؤدي إلى باب الكوفي شوب حيث كنت أنتظر.

سألته بعد تبادل التحيات، والسؤال عن الأحوال:

- هل جلبت المفتاح؟

أجاب ضاحكا:

- المفتاح مازال في جيبي. كما ترين الحال كما هو.
- كلا.. تغيرت أشياء كثيرة. أين الاشجار؟ أين أبو عاطف؟

روى لي، أن ابا عاطف توفي، بعد سنة من رحيل أم عاطف. لم يتحمل فراقها كما يبدو، أصيب بمرض غامض، وأخذه أولاده، وبعد فترة وجيزة.... لم استمع بقية القصة، كان ذهني مشغولا بفكرة واحدة "أم عاطف وجدت نافذتها أخيرا"

انتبهت إليه، وهو يقول:

- ولكن يبدو أن وجهك خير علينا. أفتح لك الباب؟

عاجلته قائلة:

- ولكني لا أريدك أن تظن أني هنا لأستأجر أو اشتري. لقد جئت من أجل أمر آخر.

قال بنبرة من تعود على الخسارة:

- تحت أمرك.
- أكتب هذه الأيام يومياتي في الكوفي شوب، وأريدك فقط أن تلتقط لي صورة خلف الكاونتر. تصور أني لا أملك أية صورة داخل او خارج برديز.

كانت نظرة عينيه اليائستين يشوبها مفاجأة مخلوطة بغضب مكتوم. أسرعت إلى حقيبتي، أخرجت الكاميرا، وأنا أقول مستعطفة:

- صورة واحدة فقط. سوف أحتاجها كثيرا في «اليوميات» وأنا آسفة للتعب الذي أسببه لك.

- لا.. أبدا.. تحت أمرك. تفضلي.

وقفت خلف الكاونتر، وأمامي الشواية والخلاط، وبعض الأدوات يعلوها التراب. عدلتُ شعري، وابتسمتُ للكراسي المصطفة.. يجلس عليها عشرات من الزبائن. وجوه ضاحكة، حزينة، مشتاقة، متذمرة، غاضبة، ممعنة في الجدال، صامتة، ساخرة، شاردة، منتظرة.. جمهور يملأ المكان.. ابتسمتُ لهم إبتسامة عريضة.

*****

القاهرة - 2015

الاستيقاظ صباحا في غوانتنامو[1]

الأصوات تبتعد وتقترب.. هدير.. حفيف.. رنين.. صليل.. لهاث.. أفتح عيني فأجدني أحدق في عيني ذئب.

- ذئاب.. أجج النار.

صرخ أحد الرفاق، فحركت الخشب في النار التي تكاد تخمد. هناك في تلك الحفرة التي تحلّقنا حولها، في موقعنا ذاك من جبل (سورتانجي).

كنت جديد عهد بهذه الرفقة، ولم يفت في عضدي، مثل هذه المهمات الصغيرة التي توكل إلي. ولهذا كنت أقوم بها، بهمة وحماس، تثيران تندرهم غالبا، فيهتف أحدهم:

- الذئب يسأل صاحبه: من يرعى النار هذه الليلة؟ فيجيبه الملا عبد الله فيقول له: اذن لا فائدة من الانتظار فناره لا تخمد أبدا.

ولكن.. لهاث الذئب يقترب.. ماذا حدث؟ هل خمدت النار؟ ربما سرقني النوم؟ أحاول أن أتحرك. أفتح عينيّ. أرى الذئب واضحا، هذه المرة، وقريبا جدا. ولكن كأنه داخل قفص. هل أحلم؟

---

[1] تضامنا مع ضحايا الصمت والتواطؤ العالمي المخزي على جريمة القرن الواحد والعشرين.

(حتى أكتب هذه القصة كان علي أن أقرأ التاريخ والعادات والتقاليد ولغة البشتون في أفغانستان) كتبت القصة في القاهرة "بين 2009-2010" (الكاتبة)

إن الذئاب لا تعيش في أقفاص. أين أنا؟ أشحت بوجهي، وحاولت أن أتسلل إلى الحلم مرة أخرى.

ولكني أفقت على صليل حديد، يرن كالمطارق في رأسي. وشيء حاد، ينخس أضلاعي. وقبل أن أتبين شيئا، شعرت بذراعي تقيدان، ثم بقدمي تكبلان. فتحت عيني على سعتهما. ماذا يحدث؟ غريبان يشدانني من الأرض إلى وضع الوقوف. في حين مازال الذئب يكشر عن أنيابه داخل قفصه .

لا.. لم يكن.. كان طليقا! أنا الذي في داخل قفص!

وضع الغريبان عصابة على عيني. لم يكن ذئبا. بل كلب حراسة. أين أنا؟

حاولتْ أيادٍ دفعي إلى السير. أين يذهبون بي؟ جررت قدمي، وكدت أتهاوى. تصايح الرجال حولي بلغة لم أفهمها. سمعتُ حركة، وجلبة، ثم دفعني أحدهم في صدري فهويت على.. ما يشبه أرجوحة ربما نقالة.. ترتج بي.. وتهتز. أرفع جفني.. سماء زرقاء صافية، شديدة الضياء. ولكن الضوء المبهر للنهار، يخز عيني، بألم فأطبقهما. لا أدري منذ متى لم أر ليلا. وكأن كل أوقاتي، منذ جاءوا بي إلى هنا.. أعيشها في وهج حارق.. ضوء.. ضوء.. طوال الوقت. ألا يأتي الليل أبدا؟ يتأرجح جسدي يمينا ويسارا.

(الله.. هوو) (الله.. هوو) (الله.. هوو) تترنم أمي، بصوت موجوع رتيب (الله.. هوو) وهي تؤرجح مهد أخي الصغير، فيغفو مبتسما، وتخفت ترنيمتها حتى تتلاشى، فأتقدم من أمي أطوق عنقها:

- لماذا لا يكون لي مهد هزاز مثله؟

فتضحك وهي تنتزع ذراعي من حولها:

- هذا كان مهدك ولكنك كبرت الآن. هيا.. اذهب والعب مع الصبيان.

يتأرجح جسدي، يمينا ويسارا. أتوارى في حضن أمي، وهي تحيطني بذراعيها، مودعة، وأنا ذاهب للحاق بالرفاق في الجبل "الله.. يحميك يا ابني" وتصرّ أن آخذ مصحفا صغيرا "ضعه في جيب الصديري دائما وتحت مخدتك في الليل" ولكنه لم يعد معي الآن. انتزعوه من ملابسي، حين أجبرونا على ارتداء هذه البزة الحمراء. رغم شوقي إليك يا أمي، فإني لا أتمنى أن تريني بها. إنها تشبه السراويل الحمراء التي تختص بلبسها النساء عندنا، تحت ثيابهن الفضفاضة. أخذوا المصحف الصغير، ولم اره بعد ذلك. ولكن قبل أيام جاء إمام المعسكر. واحد منهم يقول إنه مسلم، ولكنه يرتدي ملابس عسكرية، وهو حليق الوجه. يقول إنه يريد أن يعلمنا. وزع علينا كتاب حكايات (ألف ليلة وليلة). أشرت إليه بأني لا أقرأ العربية، الا في كتاب الله، وطلبت مصحفا.

هز رأسه، وفهمت منه إنه يقول: ممنوع! ثم سألني، كما فهمت، عن اللغة التي أتكلم بها:

- باشتو.. باشتو

رفع حاجبيه دهشة وكأنه يسمع بالكلمة لأول مرة.

توقف اهتزاز جسدي فجأة. وهبطت النقالة على الأرض. حملني اثنان على الوقوف، وأدخلوا رأسي في غمامة سوداء. هذا هو الليل يجيء اخيرا!

لا أسمع سوى قرقعة أصفادي، وأنا أقاد، حثيثا، عبر عتبات وابواب. نتوقف. أسمع حركة الحارسين، وهما يبتعدان، وفي نفس الوقت، أتلقى ضربة شديدة بشيء صلب على رجلي، تطيح بي

أرضا. ثم تمسك بي يدان، تحاولان بخشونة إجلاسي في وضع الإقعاء.

- اسمك!

كان الصوت يتحدث الباشتو. رف قلبي وأنا أردد:

- عبد الله.

** * **

- اسمي عايشة.

كانت تحمل خشب الوقود، على رأسها، في ذلك الممر الذي يخترق جبل «سور تانجي»، عندما تساقط بعض الخشب، فهرع إلى التقاطه، وإحكام وضعه على رأسها. ورف قلبه إذ تلامست أصابعهما عفوا. ثم انفلتت من أمامه، مثل غزال بري. راقبها وهي تسرع الخطى، مبتعدة بقامة مشدودة، توازن حمولة الحطب على رأسها.

عدّل العمامة، بعد ان انزلقت على جبينه، وأحكم امتشاق بندقيته على ظهره.

وبدأ يدندن بـ (لندي)[2] ، وهو يستأنف سيره.

يووار دي لاس به لاس كي راكه[3]

وعلا صوته شيئا فشيئا هو يصدح بين الجبال..

دا لاس نيوي به دي تر ديرة يادومة[4]

---

[2] لندي: كوبليه غنائي فولكلوري.

[3] أعطني يدك مرة والى الابد.

[4] سوف اتذكر لمسة اليد هذه زمنا طويلا

كان الصوت الذي يسأله بالباشتو، قاسيا وصارما وعدائيا. أشعره بالغربة من لغة أهله. كل شيء هنا خالٍ من الودّ. الباشتو والإمام المسلم الذي يمنع أن نصلي جماعة، والذي رغم ذلك وضع لافتة بكلمة (القِبلة) بخط يده، وباللغة العربية، وعلقها على أحد أبراج الحراسة، في مكان نستطيع أن نراها من بعيد. ولكن أغلبنا لم يعد يصلي. وكيف ذلك ونحن لم نر الماء على أجسادنا منذ شهور، سوى ما يرشوننا به في أقفاصنا، بخراطيم المياه المصوبة إلينا من بعيد.

كان الرجل يطلق عليّ أسئلته، قصيرة وحادة، وبصوت رتيب خال من المشاعر.

- أعيدوني إلى وطني. أنا باشتون، ولست عربيا. ولا أعرف أحدا منهم

وكأنه لم يفهم الباشتو التي أتكلم بها. لا أدري إن كان هو الذي لطمني بشدة على رأسي، ولكن صوته استمر يسأل بحدة، ويكرر الأسئلة، وأعيد الأجوبة، ولكن كل ما قلته لم يعجبه.

- إذا كنتم ترونني مذنبا، فاقتلوني بالله عليكم. أما إذا لم أكن كذلك، فلماذا أبقى هنا؟ أُقتلوني أو أعيدوني إلى وطني. أُقتلوني أو أعيدوني.

- أعيدوه إلى قفصه!

وفي تلك اللحظة، وهم يسحبونني خارج المكان، أحسست أن ضوء النهار الحارق، وخلوة زنزانتي، إلا من لهاث كلاب الحراسة، أحسن مما أنا فيه. شهقت، وهم يرفعون غمامتي، وأرى وجه السماء، مرة أخرى.

تأرجحت بي النقالة حتى توقفت، قرب صف أقفاص الحديد. تحاشيت النظر في وجوه الرفاق، وهم خلف قضبانهم، يحدقون في وجهي، بأمل أن يستشفوا شيئا، منتظرين دورهم، بحذر وترقب، وشيء من التوق أيضا للخروج من الأقفاص بأي ثمن وإلى أي مكان.

- الحمد لله؟

سمعتُ جاري يسأل. كان عربيا، ولا نستطيع التحدث بغير كلمات القرآن الكريم.

- الحمد لله!

ملأتُ كوبا من السطل الذي بقي فيه شيء من ماء الشرب. إلا أن الماء تعثر في بلعومي وأحسست بغصة.

-هل يذكرني أحد الآن؟[5]

أخواي حميد وعبد الرحمن؟ آخر ما رأيتهما عندما أُسرنا في قلعة "جهانجي" قبل أن يفصلوننا. أمي في بيتنا المنزوي في حضن الجبل؟ هل يكتب لي الله أن أراهم مرة أخرى؟ ام ترُاهم..؟ وعايشة؟ آه.. من لمسة يدها. أما زال يسقط عن رأسها خشب الوقود، وهل يساعدها مفتون آخر؟ أم ترُاها الآن تتحلق مع عائلتها، حول الصندل[6] ترتشف الشاي الأخضر وتفكر بي خلسة، وهي تذكي نار الفحم؟ وتغطى المنضدة بلحاف قطن كبير.

---

[5] من المعتقدات الافغانية إذا تغرغر الماء في بلعوم احدهم، يعني ان احدا يذكره في تلك اللحظة.

[6] موقد لتدفئة العائلة يتكون من منضدة مربعة خشبية توضع بارتفاع 40 سم فوق فحم متقد وتغطى المنضدة بلحاف قطن كبير

كم يبدو كل شيء بعيدا.. مضببا. إلا أنني أرى بوضوح، جبال «سبين غار» و«سور تانجي» جبالا بيضاء، وحمراء، وجبالا خضراء، تغطيها نباتات برية.

** * **

يضطجع على الحشية، ويعقد ذراعيه خلف رأسه، وهو يرى نفسه، وسط عشيرته، وقد طالت لحيته مرة اخرى. يرتدي جوبان[7] أبيض، وحوله رفاق صباه، وهم يصفقون، على ايقاع الطبلة والرباب والسازاندة[8] يغنون لندي وكلاسيك[9] وفي البيت المجاور، عروسه عايشة، تلتمع عيناها العسليتان، وهما تتابعان رقص صويحباتها على ايقاع الديرة[10]. صليل منغم يخترق أذنيه. وفكر "إنهم يأخذون العربي للتحقيق" .

يرفع صوته ليسمعه جاره قبل أن يبتعد بخطى ثقيلة، بقدر ما تسمح به الأصفاد: الله رحيم.

يتوقف السازندة عن الغناء.. وتصمت الرباب، ويكف الرفاق عن التصفيق. يسود السكون.

- حانت الساعة.. استعدوا..

ويزف في موكب طويل.. من رجال لم يعد يعرفهم. كانوا جميعا، حليقي الرؤوس والذقون، يرتدون بزات حمراء كالنساء او المهرجين.. بدون عمائم. كانت أيديهم موثقة من الخلف

---

7 جوبان: جبة من الصوف يلون ابيض عادة يلبسها الرجال في الجبال شتاءً.

8 المغنون المحترفون.

9 الغناء الأفغاني القديم الذي لا يقدر عليه إلا المغنون المحترفون.

10 آلة موسيقية تشبه الدف تستعملها النساء فقط

يمشون، مطأطئين، خجلين، من أن يراهم أحد او يرون بعضهم بعضا. كانوا مسربلين بالذل والمهانة. أحس كأنه يمشي عاريا، وسط عشيرته. كان يظن أن هذا الكابوس سينتهي عند وصولهم إلى الباحة التي يساقون إليها، فيعدمون، وأخذ يقرأ سورة (الفاتحة) مرارا، حتى وجد نفسه يُحمل حملا إلى داخل طائرة. ما أن تعثر داخل بابها، حتى أجلس على مقعد، وقيدت يداه وقدماه إلى المقعد. تلفت حوله بارتباك، ثم بغضب.

أحس بوخز إبرة في ذراعه، ثم رُشق شريط لاصق غليظ على فمه فغاب صوته، ثم دُس شيء في أذنيه فغاب سمعه ثم أدخلوا رأسه، بقناع أسود، فغاب نظره.

ولكنه مع ذلك، استطاع أن يرى والطائرة ترتفع، ذرى جبال أفغانستان مغطاة بالثلوج، وعايشة وهي تؤجج النار في الصندل، وتنظر إليه بعينين ضاحكتين، مغطية فمها بالخمار، واستطاع أن يسمع صوتا يشبه صوت أمه، ينهمر مع الشلالات المتحدرة من الجبال والوديان، مترنما، متوجعا:

من كه به ميوند كي شهيد نشوي[11]

زما لاليه بي ننكي ته دي ساتينة[12]

استطاع عندئذ أن يفك إسار يديه، ويجثو عند قدميها، يحيط وجهها الصابر بكفيه، ويقول لها: انتظريني.. لن أغيب طويلا.

---

[11] إذا لم تسقط شهيدا في معركة ميوند.

[12] فإن الأيام تدخرك يا حبيبي لأيام الذل.

الرواية التي أكتبها

قلت لصديقتي صفاء بفرح "إني أكتب رواية".

كانت قد اتصلت هاتفيا، وقالت إن أمها ماتت، منذ عشرة ايام، وأنها تحس بالاختناق وبأشياء غريبة، واقترحتْ أن نذهب إلى السينما. واقترحتُ أن نقضي سهرة في بيتي.

- عندي إحساس بأني أتخلص منه على صفحات الرواية

قالت:

- ومن يدري؟ ربما بعد أن تنهي الرواية، تجدين أنه من المحزن التفريط بمثل هذا الحب، فتعودين إليه.

كانت تدخن بشراهة. عزمت عليّ بسيجارة. نفثتُ دخانها، وأنا أقول:

- لا أدري. لا أظن. زمان، عندما كنت أصغر سنا، كنت أقول لا كبرياء في الحب، الآن تبدو الأمور محيرة، فمن ناحية، يجب أن أكون سعيدة، لأني أجد حبا كبيرا في هذه السن، ربما كان ينتظر أن أقدم الكثير من التنازلات، لهذا السبب. ولكن من ناحية اخرى، تبدو مسألة الكبرياء، وكأنها آخر ما يتبقى للواحدة منا.

** * **

يجب أن أغير قلم الحبر هذا!

أخذتُ أذرع غرفتي جيئة وذهابا. أتمدد على السرير قليلا. أسوي كتبي المتناثرة على المنضدة. أغلق باب الشرفة.

ذهبتُ إلى المطبخ، وغسلت طبقين، كانا في الحوض. كنتُ أدرك أن هذا القلق يعني شيئا من إثنين: إما أني على وشك الكتابة، أو أني أريد أن أمسك الهاتف لأهدر بقايا كبريائي على أسماعه. خيل إليّ أني أستطيع أن أهاتفه، لأقول له: إني أكتب. سأكتب.. لا أقل من رواية.

لم أكتب رواية من قبل، ولا أعرف كيف أبدأ، ولكن لن تكون أقل من رواية، فقد طالت القصة أكثر مما ينبغي.

أستطيع أن ابتدئ الرواية، بوصف كفكَ اليسرى.. يزين ظهرها شامة واضحة. كنت أقول لكَ مداعبة "أنت ابن ملك أضاعوه، ويوما ما، سيتعرف عليك الملك من هذه الشامة" كنتُ سأتعرف على كفكَ من بين مئات غيرها، راحة ناعمة جدا، وأصابع غليظة، تنتهي نهايات مدببة. تتذكر كم تعبنا، حتى وجدنا خاتم زواج ذهبي، يدخل في إصبعك. كنتُ كلما تأملت يدكَ بالخاتم، أزداد افتتانا بها، وأتلمس أصابعك المدربتين، وهما تجوسان في أنحاء جسدي، تتوقف هنا قليلا، وتضغط هنا، تتوغل هناك برقة.. بقسوة.. متمهلة.. متعجلة.

وهل بعد ذلك تلومني، إذ انتزعتُ من كفك، وأنت تغادرني، خاتم الزواج؟ كنتُ أجردها من هويتي وملامحي، أنزع عنها، بهاء اللغة، التي كانت اصابعك، تترجم بها، خصوصية ما كان بيننا. بأية لغة تتحدث اصابعك الآن؟

هل تشعل النار في جسدها المنطفئ؟ أريد أن أعرف، إن كانت أطراف أصابعك، قد أدركت أنها تجوس الآن في غير أرضها. أيمكن أن تعرف، تلك الأصابع التي احببتها، كل هذا الغدر؟

ها أني أتهاوى إلى قاع الرثاء لنفسي. وأتحسس جبلا ينهض من داخل روحي، ليسد النور عن عقلي، فلا أرى سوى، بركان غضب يحتدم في اعماقي.

ليس هذا ما أردته من الكتابة. أن تكتب بغضب... يعني ألا ترى سوى نفسكَ. كان قصدي أن أكتب، لأفهمك أكثر، وتفهمني أكثر، وربما تقع الرواية في يدها، فتفهمنا أكثر. تلك المرأة التي خرجت عن طورها، وحاربت بكل الطرق الممكنة.

** * **

ما هذه القصة؟ يتساءل القارئ. امرأتان ورجل؟ ولكن هذه قصة عادية!

** * **

عندما فتحتُ الباب لم أفاجأ به، فبعد المشاجرة الهاتفية بيننا بالأمس، كنت أتوقع حضوره، وإن شعرت بالأسى والخجل، من أنه يطرق الباب الآن، بدلا من أن يستخدم مفتاحه الذي انتزعته منه، يوم جمع ملابسه، ولوحاته، وكتبه، وغادرني قبل شهر تقريبا.

كان يوم جمعة، وقد وصلت الأمور بيننا إلى حد اللارجعة، وهو حد وهمي دائما، لأننا لا نستطيع سوى أن نرجع، بعد أن يهدأ اللهيب الذي نؤججه، ونلقي اليه، بحطب الكلمات، ولكنه في تلك الجمعة، أخذ حاجاته، وذهب إليها، تلك المرأة التي ظلت تنفخ في الرماد، من بعيد. قال محتدا حين عاتبته عبر أسلاك الهاتف، بالأمس: ماذا كنت تريدين مني أن أفعله؟ أنام في الشارع؟

** * **

ماذا يفعل الكاتب عندما يشرع برواية؟ هل يرسم مخططا مسبقا للأحداث والشخصيات؟ أم يتركها تتخذ مساراتها، دون تدخل كثير منه؟ لقد ابتدأت قصتنا وانتهت أكثر من مرة. في كل مرة ننتهي ثم نبتدئ من جديد. هل يكون لهذه الرواية أكثر من بداية ونهاية واحدة؟ أم بداية واحدة، ونهايات متعددة؟

دخل وسحب كرسيا إلى جانبي، في حين تشاغلتُ ثانية بجهاز الكومبيوتر، الذي كنت أنقل إليه قصة انتهيت منها، هذا الصباح.

تحاشيت النظر إليه. لم ارغب في رؤية ملامح الأخرى، مطبوعة على وجهه.

قال متشفيا:

- أراك تفتحين بابك لي. هل أخافتك لهجتي في الهاتف؟

رددت بسرعة:

- لقد اعتدت لهجتك المتوعدة المهددة، ولكني أعرف إنك لست هذا النوع من الناس.

كنت أتحدث دون أن أنظر إليه.

- متى تنتهين من هذا الشيء؟ دعينا نخرج قليلا.
- ومن قال إني أريد الخروج ؟
- عندي كلام لابد أن أقوله لك.
- لابد أن أنتهي من القصة أولا.
- وماذا عن قصتنا؟
- ماذا عنها؟
- ألا ننتهي منها؟

التفت إليه هذه المرة:

- أهذا ما جئت من أجله؟

- هذا وأشياء أخرى.

نهض من مكانه، وبدأ يجوس خلال البيت. دخل غرفة النوم، ثم الحمام، ثم المطبخ. وسمعت صوته من هناك.

- أريد أن أعرف ماذا فعلت خلال هذه المدة.

- وما يهمك من ذلك؟

- لا تنسي إنك ما زلت زوجتي.

اقترب مني، وقال، وقد اكتست ملامحه عبوسا:

- في الحمام عقب سيجارة، وفي المطبخ ادوات حلاقة. هل كان في البيت رجل، ليلة أمس؟

- عقب السيجارة لا أعلم عنه شيئا، وقد يكون للكهربائي الذي عمل لدينا منذ يومين، أما أدوات الحلاقة فهي لي..

لا أدري لماذا كان عليّ أن اشرح له كل هذا. لقد عاد إلى ظنونه! وكان احتدام الغضب والمهانة، في داخلي، يتحول إلى ما يشبه الغثيان. عندما تصعد دموع الغيظ إلى عينيكَ، تعرف أن الوقت قد حان كي تترك القلم، حتى تستعيد هدوءك، فكتابة رواية، عمل عقلاني بارد، وليس دفقات غضب ويأس. قلبتُ قنوات التلفزيون. على إحداها، ظهر مخرج شاب، كتب سيناريو فيلم، سيعرض بعد قليل، يتناول حياة ومشاعر ومشاكل امرأة في منتصف العمر. تحدث المخرج طويلا. في الواقع استغرق كلامه المتقطع المرتجف، وقتا أطول مما استغرقه الفيلم. ثم عرض الفيلم: مشاهد مشتتة لامرأة ترتدي بدلة رجالية، وتدخن طول الوقت، ولكنها بين كل علبة سجائر، واخرى تردد لنفسها "أفتقد لمسة يديك" تمنيت لحظتها أن تكون -وأنت في الطرف الآخر من

الجحيم- أمام شاشة التلفزيون، تستمع إلى هذه الكلمات.. أفتقد لمسة يديك!

** * **

يتساءل القارئ، وهو يرمي الرواية من يده: هل هذه قصة عن امرأة في منتصف العمر؟

** * **

بدأت السنوات الأربع، التي سرقتها من عمرك، كما تقول، بذلك الصباح الصيفي الذي كانت شمسه تغري، بيوم بديع ممتد، ونحن في طريقنا إلى مدينتك الساحلية. كانت أول مرة نكون فيها وحدنا، وفي طريقنا إلى خارج القاهرة.

عندما توغلت السيارة في الصحراء، زدتُ من سرعتها، وقلت لك ضاحكة:

- لا تخف. معك سائقة ماهرة.
- لست خائفا. لقد سلمتك امري.

وتلمستَ أصابعي المشدودة على المقود. سحبتُ يدي، وغيرت موضعها، بعيدا عن يدك، ولم يكن ذلك بدافع الحشمة، كما قد تكون فهمت، وإنما كان مجرد لمس يدي، في تلك المرحلة المبكرة من علاقتنا، يمكن أن يجعلني أترك المقود وأندفع إلى أحضانك.

كان منظر البحر ساحرا، حين جلسنا إليه، بعد أكثر من ساعة. كنتُ قبلها قد دخلت الحمام، لأنفض عن وجهي تعب الطريق. سويتُ شعري وأصلحتُ زينتي الخفيفة. وذهبتُ إليك. نظرت إليك

من الخلف. كنتَ جالسا تحت سقيفة، مصنوعة من سعف النخيل، وأمامك البحر ممتدا ناعما وهادئا مثل حصيرة.

قلتَ لي، حين جلستُ إلى جانبك "يذكرني البحر بالأيام التي قضيتها في بحيرة المنزلة، بعد تهجيرنا. كنتُ أسكن بيتا داخل البحيرة، وعندما تهدأ حركة الصيادين، لم أكن اسمع سوى أصوات النوارس، والطيور البحرية. ولكني مع ذلك، أحب هياج البحر."

والتفت إليّ مبتسما:

- يقولون أن مزاجنا، نحن أهل السواحل، مثل البحر: يوم هادئ، ويوم عاصف.

هل كان عليّ أن أسرق من عمرك، كما تقول، أربع سنوات، قبل أن أفهم مزاج البحر هذا؟

**

لماذا لا أبدأ الرواية بقولك مرة، أنك تفتقدني -ويا للغرابة- كلما دخنت أرجيلة. وضحكنا وأنت تقول إنه عليك لكي تنساني، أن تترك عادة التدخين هذه.

لم أشعر بالإطراء، بل انتابتني الحيرة. أدري أن هذه العادة، تذكرك بالأرجيلة الخشبية المزخرفة التي جلبتُها من بغداد. كان من المفترض، أن توضع زينة في الركن العربي، في غرفة الصالون. هذا ما كانت عليه منذ سنوات، في بيت اختي التي لم تجد ما تهديني، وأنا أودعها مسافرة، سواها. ولكنك حين تلقفتها بيديك، وقلبتها، وقضيت ساعة، تغسلها وتعدها، وجدتَ فيها، إمكانية استخدامها، في ليالينا الصيفية، في شرفتنا الساحرة، في الطابق الحادي عشر.

كانت رائحة التبغ وهو يحترق، تتسلل إليّ من المطبخ، وانت تنضج الفحم، وتأخذه بالملقاط لتدفنه في وريقات التبغ، تثير حواسي، ثم وأنا أتربع، على الأرض، أتأمل بافتتان، ملامح وجهك، وهي تتعامل مع مبسم الأرجيلة. تزم شفتيك حوله، وانت تمتص الهواء، ثم تنفثه دخانا، ونظرة غائمة في عينيك، وكأنهما يغيبان، في سماوات شاسعة.. ذات النظرة التي تغشي عينيك، وأنت تغيب معي، في ذروة الحب. وأنتظر أن تراني من جديد.

تلتفتْ إلي، وتسلمني مبسم الأرجيلة، وتقول "جربي ". أتظاهر بأني أغيب فيها مثلك، ولكني لا أفلح. أنفث الدخان مرتين، ثم أميل عليك، وقبل ان تزم شفتيك حول المبسم. أقبلهما.

هل تتذكر كل ذلك، عندما تجلس الآن، في أي مقهى، لتطلب أرجيلة وحجرا ومبسما جديدا؟

**

سألتُ صفاء:

- هل تعرفين ما الذي أفتقده، حين يهجرني؟ وما الذي كان يعيدني إليه في كل مرة؟

كنا نجلس معا على أريكة، وأرجلنا مطوية تحتنا. أغمضتْ عين واحدة ونفثت دخان سيجارتها، وقالت ضاحكة:

- الشجار؟

- لن تصدقي.. ما سأقوله.. حتى هو لا يعرف. أفتقد في كل مرة، وضع كفه على كتفي، عند منبت رقبتي، ونحن نعبر الشارع، أو ونحن نخترق زحاما. كنت أجد في حركته اللاشعورية تلك، حنانا وسطوة وحماية.

ثلاثة أشياء، لم أجدها فيه، طوال حياتنا معا، إلا في حركة اليد هذه!

- هذه بداية جيدة للرواية "أفتقد في كل مرة" انطلقي من هنا..

القاهرة 2014

Online

كان ألف يقيم على مسافة 15 مترا مني، أما ما بيني و"باء " فقد كانت المسافة 20 مترا، و"جيم" يقيم على مبعدة 21 مترا. أعرف المسافات بدقة، لأني قستها بنفسي، قبل شراء الأسلاك التي تمتد بين غرفنا.

سلك التليفون أسود اللون، يمتد عبر شرفة غرفتي، الى الآلة القابعة على سطح مكتبي، ومن الموديم الذي غيرناه ثلاث مرات، تمتد أربع أسلاك رمادية سميكة واحد منها يزحف على الأرض، مخترقا صالة الاستقبال، ملتفا حول باب المطبخ، عبر ممر طويل، حتى يصل إلى "ألف"، وسلكان يقطعان طريقا مختصرا، يمر عبر الحمام الصغير المقابل لغرفتي، وبمثابة حبل غسيل أعلق عليه أحيانا، اشيائي الصغيرة، ثم من خلال الشرفة الضيقة اللصيقة بالمطبخ والتي تحولت إلى مخزن لِما تكسر وتهرأ في حياتنا، من علب فارغة، وقدور قديمة، وألواح خشب قديمة، ولعب أطفال مهشمة، يحلق السلكان، فوق ذكرياتنا القديمة هذه، ثم يتفرعان الى فرعين، يصب أحدهما، في غرفة باء، والآخر عند جيم.

كنا في أحيان نادرة، نتمكن من الاجتماع معا، في غرفة المعيشة، التي تقع بين غرفة ألف، وصالة الاستقبال، مطلة على الممر الذي يتلوى على امتداده، سلك ألف، لمشاهدة مقاطع من فيلم أو أغنية، أو إذا أصررت أنا، على شريط إخباري، لحين انتهاء كل منا، من التهام ما في طبقه، من طعام لم يتسع له سطح مكتبه.

ولكن بعد أول أجر قبضه باء، من تصميم فاصل إعلاني لإحدى الشركات، غادر غرفة معيشتنا إلى الأبد، حيث اشترى شريحة لمشاهدة برامج التلفزيون، على حاسوبه، ولكن بسبب ذلك، مد سلكا جديدا، سميكا، وصلبا من طبق الستلايت، فوق سطح العمارة، مخترقا شباك غرفة المعيشة، زاحفا تحت الأرائك، حتى باب الغرفة، ثم متقاطعا مع سلك ألف، في اتجاه باب باء.

حاولتُ أول الأمر، أن أغطي الأسلاك المتعرجة الممتدة على الأرض، بقطع من السجاد، ولكنني سرعان ما نبذتُ الفكرة، حين اكتشفت، أن النتوءات تحت السجاد، قد تؤدي إلى تعثرنا، ونحن نجوس خلال المنزل، في بعض شؤوننا. وهكذا ظلت الأرض باردة، في عريها.

كانت غرفتي، هي مركز هذا الكون، ففيها الأجهزة التي تديره، وأنا التي أصل وأقطع، وأنا التي أرد على جهاز الهاتف الوحيد، في عالمنا ولكن على أية حال، أنا ربة هذا البيت.

غرفتي الصغيرة، تطل على شرفة أجلس فيها، أحيانا حين أشتاق للشمس، يغطي أحد جدرانها مكتبة شاهقة حتى السقف، ولم أستطع يوما أن أنجز ترتيب الكتب فيها، وبقيت مكومة على بعضها، يعلوها التراب. على الجدران الأخرى، خارطة للعالم واخرى كبيرة للعراق.. إلى جانبها كولاج صور، لآثار وأشخاص من بلادي. ويتوسط هذا العالم، بالتأكيد، المكتب الصغير، وجهاز الحاسوب، والهاتف الذي يشعرني، أن هناك آخرين من لحم ودم وصوت.. خارج هذا الكون الافتراضي الذي أدخل رحابه الفسيحة من شاشة 17 بوصة. التواصل مع الأصوات الآدمية عبر الهاتف لم يكن معضلة. "ألف" غير موجود للجميع دائما، و"جيم" يضطر

إلى مغادرة الغرفة، إلى أقرب نقطة يستطيع أن يسمع فيها صوتي بوضوح. أما "باء" فإني أقول للمتصل "لحظة" وأفتح المسنجر فأجده offline وهذا يعني إنه نائم أو في الحمام أو خارج المنزل.. أو لا يريد اتصالا.

أنهض كل صباح، وقبل أن أعرج على الحمام الملاصق لغرفتي، أضغط بأصبعي، على مفتاح الجهاز، فيملأ هديره الغرفة، وتومض أنواره الخضراء على الشاشة، ولوحة الكتابة، والموديم، وتنبض الحياة في فأرتي الرقمية، فأحس أن كل شيء على ما يرام، في عالمي هذا، وبعد قليل سأدخل أكوانه الواسعة التي تأتمر بنقرات بناني.

حتى نحل مشكلة "جيم "، الذي يتوقع دائما، اتصالا هاتفيا مهما من جهة ما، اتفقنا جميعا، ونحن في إحدى لحظات لقائنا النادرة، في غرفة المعيشة أن نستخدم وضع الغائب offline على المسنجر، طالما لا نريد إقلاق راحتنا بأي شكل، أما إذا كان أحدنا، ينتظر اتصالا، أو يكون في حالة ضجر، أو إن كان سعيدا لسبب ما، ويريد الحديث عن ذلك، مع الآخرين، فما عليه إلا استخدام وضع موجود online لنكون على بينة من حالته. وهكذا لم أعد في حاجة للصراخ، منادية "جيم"، ولم يعد هو في حاجة إلى الخروج من غرفته، ليسمعني، كان يكفي أن أبعث له رسالة، إذا كان وضعه "موجودا" أبلغه بوجود نداء هاتفي له.

كان كل شيء يسير على ما يرام، والحياة في بيتنا جميلة ورائقة، لا حركة غير محسوبة، لا صوت، سوى أصوات الموسيقى المكتومة التي يستمع إليها الأولاد، عبر السماعات

الملتصقة بآذانهم. حين يحين موعد الطعام، يكفي أن أنقر على الفأرة (الطعام جاهز لمن يريد ولمن موجود).

كنت أحيانا، من أجل الذائقة البصرية، أغير من وضع الأسلاك الممتدة كالثعابين بين الغرف، أرفعها بمسمار على الجدار، أو أمدها مخفية، وراء مقاعد غرفة المعيشة، أو أرتبها متقاطعة بشكل مبهج. ولكن أيامنا لم تكن رتيبة او مملة، فهي حافلة بالمفاجآت، وكل واحد منا لا يكاد يصحو، من غيبوبة النوم، حتى يهرع إلى صندوقه السحري، لينفذ منه إلى عالمه الضاج بالحياة والأحداث. حتى جاء هذا اليوم الذي صحوت فيه، شاعرة بالاختناق. أفقت من كابوس غطست فيه تحت الماء، وكنت أكافح بلا جدوى، للطفو فوق السطح، ولكن أسلاكا متشابكة تثقل جسدي المنهك تلتف مثل اخطبوط، حول ساقي، وتشدني الى القاع.

** * **

أفقت وأنا أختنق، لم أستطع حتى رفع صوتي بالصراخ... وبين شهقاتي، تشبثتْ أصابعي بالكيبورد، أبحث مثل غريق عن باء، offline؟ عن ألف offline؟، عن جيم offline؟

ماذا حدث لكم: نائمين؟ غائبين؟ مشغولين؟

ضربتُ على الكيبورد، ثم وأنا أغطس تحت الماء، وأطفو قليلا من أجل شهقة هواء، لاحت لي خاطرة أن وضعي الدائم في البيت، كان online وهذا يعني أني موجودة، وعلى ما يرام، ولا حاجة للسؤال، أو البحث عني، ولن يفعلوا حتى أغيرها إلى offline ولكني لم أستطع تحريك إصبعي لأضغط على الفأرة. كان خدر غريب، قد بدأ يسري في أطرافي...

القاهرة – 2015

حجارة البيت

الحجارة.

كانت حجارة بناء قديمة حوافها مكسرة، مسودة الجوانب، وكانت قد رأت أياما أفضل منذ أن وضعت أول مرة في الزاوية اليمنى، ليرتكز عليها شباك ذلك البيت الجديد، منذ سنوات غائرة في القدم.

الشباك يطل على زيتونة وارفة تصطفق بأغصانها رياح تشرين، وصدى صوت (أبي خليل) وهو يشتغل بهمة:

"ابني يا بنّا
وعلّي البنيان
وتستاهل يا بنّا
بدلة من الشام"
والعمال يهزجون وراءه .

بعد الانتهاء من بناء البيت، سكنته الصبية الجميلة وزوجها. وكانا في أمسيات الصيف الرقيقة، يجلسان في الشباك، يطلان على الحقل، ويا ما استمعت الحجارة إلى صوت الأحلام والأماني. كانت الشمس، إذا غربت، تشع نورا أحمر يلتمع على أوراق الزيتونة البرية، وينعكس على الحجارة مثل وهج النار. وفي يوم أطلت الصبية من الشباك تنتظر عودة زوجها من الحقل، ولكن طال انتظارها. ثم عرفت أنه لن يأتي. بل جاءت المدافع،

واحترقت الزيتونة واقفة، وطار الشباك، وتدحرجت الحجارة إلى الأرض مكسرة في شظايا.

ولكن لم يمض وقت طويل، حتى التقطها رجل جاء في ظلمة الليل، واحتمى في ظل الحائط المهدم. جمع حطبا من أغصان الزيتونة اليابسة، وحوّطها بالأحجار، وأشعل نارا تدفئه، ريثما ينظف بندقيته، وهو يترنم بصوت خافت:

"ابني يا بنّا وعلّي البنيان"

** * **

الدخيل

عندما ارتفعت الحجارة بيد الولد الفلسطيني، أدرك رامون ليبوفيتش على الجانب الآخر، أنه على وشك الانتهاء من مهمته. كان ورفيقه يحتميان بإحدى عربات الدورية التي تحيط بالمخيم. لم يكن الجو في برودة شتاء موطنه الأصلي الذي هاجر منه منذ ثلاث سنوات، ولكن رامون أحس بقشعريرة تعتري جسده، وهو يثبت البندقية الآلية على حافة العربة.

بعد أن استطاع رامون أن يفلت من حصار وطنه، هاجر إلى إسرائيل -حلمه البعيد- أما أوري ابن عمه، فقد اتجه إلى الولايات المتحدة، ومن هناك ظل، في بادئ الأمر، يراسله داعيا إياه للحاق به، ثم انقطعت الرسائل فترة طويلة، وأخيرا بعث يقول، إنه يعد العدة للعودة الى وطنه بولندة.

لم يكن ذلك الخبر مفاجئا له، فمنذ وطئت قدماه هذه الأرض الغريبة، وإحساس قوي لا يفارقه بأنه لن يطيل المقام بها.

تحركت عربات الدورية باتجاه المخيم. لاحظ رامون بامتعاض ومضة الترقب التي تلوح في عيني ديفد، كصياد رصد طريدته. كان ديفد أوفر حظا من رامون، فقد استطاع بعد فترة قصيرة من انخراطه في الجيش أن يجد طريقة، لتهريب وبيع سلاح الجيش، لليهود والعرب على السواء. أما رامون، فإنه لم يعرف ما يفعله بعد الخروج من مركز الاستيعاب، إلا أن يلتحق بالخدمة العسكرية، حيث يجد المأوى والأكل والأفيون أيضا.

أمسك بالبندقية بكل قوته، وكأنه يستمد منها العزم، وهو على أية حال لم يحس بالانتماء في هذه البلاد إلا لها. وبعد شهر، حين يتم تسريحه، لن يستطيع أي يهودي أن ينكر إنه أدى واجبه، وربما يشفع له ذلك، عندما يتهيأ للرجوع إلى وطنه، او أي مكان آخر غير هذا الجحيم .

سدد البندقية إلى الفلسطيني، في الوقت الذي انطلقت فيها الحجارة في الهواء، حجارة مجبولة من تراب أحمر بلون الدم، والنار، والأحلام المتقدة.. تلوثْ في الفضاء مثل كرة من لهب، وانقضت على الهدف.

كان آخر ما سمعه رامون رنين خوذته العسكرية لدى اصطدامها بالأرض.

القاهرة – 2015

كلمة

وسط الزحمة، تلقت يدي خلسة، ورقة مطوية دستها أصابع مرتجفة. كنت في طريقي إلى الجبهة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي نقترب فيها، بعد أن ظلت عيوننا تسترق النظرات سنة كاملة، ولأول مرة أعرف أن لون عينيها بني غامق. كنت طوال هذه المدة أصف عينيها في مذكراتي بـ(الليل الناعس).

فوجئت بالورقة المدعوكة في يدي، وأنا أسلم على أخيها صديقي، وأدفن رأسي في حضن أمها التي احاطتني بذراعيها، وهي تردد "الله يحميك يا ابني" وتصر على أن آخذ منها مصحفا صغيرا "ضعه في جيبك دائما وتحت مخدتك حين تنام."

غادرتهم متعجلا لحظة خلوة لأقرأ رسالتها، حتى أن أخي أحمد كان يبذل جهدا للحاق بي، وقد جاء يشيعني حتى الحافلات .

شعرت بالذنب، وأنا أتمنى لو تنشق الأرض، وتبلعه لحظة، ريثما أقرأ الورقة التي أطبق عليها أصابعي. كم عليّ أن أنتظر، حتى أقرأ ما في الرسالة؟ لابد أن تكون رسالة، فماذا يمكن أن تدسه في يدي، بكل هذا الارتباك غير ذلك؟

عانقت أخي، وصعدت إلى المركبة، وأنا أشير إليه أن ينصرف، لكنه تسمر في مكانه ينتظر أن نتحرك أولا. لم أطق صبرا. فتحت الورقة بسرعة. كلمة واحدة مرتعشة. نظرت إلى أحمد. كان يبتسم وهو يرفع يده مودعا. أردت أن أهتف به "أحمد.. إنها تحبني."

كان أخي يقول شيئا، خنقته أصوات جنازير المركبات، وهي تقرقع متحركة.
التفتُ إليه. كان آخر ما رأيته.. ظهره وهو يبتعد، رافعا رأسه بطريقته المعتادة، وكان من السهل أن أخمن أنه يتجول بعينين براقتين بدمع عصي، على أسطح المباني، وأعالي الأشجار كعادته، حين يريد أن يمنع دموعه من السقوط. شعرتُ بغصة لأني لم أحتضنه بقوة عند الوداع.
فتحتُ الورقة بهدوء.. وتأملتُ "أحبك" حرفا حرفا.. تخيلتُ أناملها الرقيقة، وهي تخط الألف والحاء والباء والكاف.... خطوطا بلون الدم..

القاهرة – 2015

قصة حياة "كلير سويتي" القصيرة جدا

أنهض من الفراش صباح كل يوم. أدخل الحمام، أحدق في وجهي في المرآة، وأتذكر كلير سويت.

قالت مصححة أن اسمها يُنطق (سويتي) وأنها إيرلندية من بلدة كيرك، التي لم أسمع بها من قبل.

دقيقة ومرتبة، كما يليق بسكرتيرة تنفيذية في المشروع الدولي الذي كنا نعمل به. أنيقة ببساطة، نشيطة ومرحة، بالقدر الذي يسمح به دمها الإيرلندي، وقَصة شعرها الأشقر القصير، تحذف بضع سنوات من عمرها الذي لم أستطع تخمينه تماما، ولكنها بالتأكيد تعدت منتصف العمر، ولهذا سأتذكر دائما يوم طرقتُ باب غرفتها، في ذلك الفندق في أسوان، الذي قضينا معا فيه اجازة شتائية رائعة.

كان الوقت مبكرا. فتحتْ الباب، فرأيتها لأول مرة بملابس النوم، وشعرها القصير مشوشا، ثم رأيتُ وجهها، بدون مساحيق، وبدون قناع البشاشة والحيوية.

"يا إلهي" هتفتُ في أعماقي "كم هي عجوز"!

والآن، كلما أنهض صباحا، وأدخل الحمام، وأنظر في المرآة، أتذكر كلير سويتي.

لقد مرت سنوات طويلة، عبرتُ خلالها بسرعة مذهلة، حدود الزمن الذي كان يفصل بين جيلينا. وقبل أيام، وأنا أبحث في أوراقي القديمة، وجدت بطاقة أنيقة صغيرة، كانت كلير قد أرسلتها من روما، مقر الإدارة الرئيسية للمشروع، حيث نقلت

إليه، تصف فيها جولة لها في المدينة، كما رأتها في عيد الفصح من ذلك العام 1984

"إني أقضي وقتا طويلا أتجول في شوارع روما، لزيارة المواقع السياحية. بالأمس مثلا ذهبت إلى مكان يعج بالفنانين، ومقابل مبلغ صغير، يرسمون لوحات بورتريه وكاريكاتير، وكان من الممتع أن اراقبهم وأقارن بين اللوحة والأصل. إن المكان زاخر بالحياة، واللمحات الإنسانية. للأسف، الصورة التي رسموها لي، لم تكن تشبهني اطلاقا.

ماذا أقول؟ كانت لعجوز لا أعرفها." ثم أضافت في نهاية البطاقة، جملة ضحكت لها يومها، ولكني أراها الآن غريبة و(كئيبة).

"من فضلك، ابقِ على اتصال، وابقِ على قيد الحياة"

ذلك أن كلير ماتت بعدها بوقت قصير.

القاهرة - 2015

كل ما أملك

كانت رسالة شقيقي أحمد، على شاشة هاتفي النقال، مختصرة ومبهمة "مبروك. وجدنا كنز الوالدة. كلمني"

لو لم يكن رقم أحمد، وكود العراق، ظاهريْن في مقدمة الرسالة، لتصورت ومعي كل الحق، أنها من نوع تلك الرسائل المخادعة، التي تبشرك بالفوز بإرث قريب لا تعرفه، في بوركينا فاسو. ولكن أي كنز للوالدة؟ حين رحلتْ فجأة، قبل خمس سنوات، بعد غيبوبة قصيرة، تلقيتُ الخبر من أحمد، بعد أن انتهى من دفنها. واعتذر يومها حين عاتبته، أن كل شيء جرى بسرعة، وتساءل: "وحتى لو أبلغتك في وقت مناسب، هل كنتَ حقا ستركب طائرة لتأتي فورا؟"

ظل السؤال معلقا منذ ذلك الحين.

كنز؟ أذكر بوضوح، تلك المكالمة اليتيمة بعد رحيلها، حين سألتُه إذا كان يحتاج مالا، يعوضه عما صرفه.. يعني.. على تلك الأمور، قال إنها تكفلت بكل شيء. لم تترك إرثا كبيرا، ولكن كان راتب تقاعدها لذلك الشهر، في حقيبة يدها "أنت تعلم إنها تعيش معي، منذ سنوات، وزوجتي تعتني بها، ولم نتركها تحتاج إلى شيء. الحمد لله"

بعد أيام من تلك المحادثة، وصلتني رسالة سريعة منه تقول "سأقوم بإجراءات القسام الشرعي. كلمني" وحين طلبته أوضح قائلا "هذه إجراءات لابد منها، ولكن تعرف يا محمود، أنها لم تترك شيئا، لا مالا، ولا أملاكا"

سألته:

- ولكن إذا كانت في رعايتك طوال هذه السنوات، أين ذهبت رواتبها التقاعدية، وحصتها من إرث الوالد؟

- كانت تصرف في المناسبات والاعياد. عيديات للصغار. لا أدري والله، فتشنا كل دولابها.. لا شيء.

** * **

رن هاتفه طويلا ولم يرد. طلبته مرة أخرى وأخرى، ومرات، ثم تركت له رسالة "أين أنت؟ أكلمك بعد ساعة."

أنتظر واقفا في نافذة السرداب، الذي أعيش فيه، أطل على الأقدام المسرعة بإيقاع رتيب، على الرصيف، في ظهيرة لندنية ممطرة.

** * **

فتحت عينيها في سماء الغرفة "فاتتني صلاة الفجر"، ولكنها شعرت بالراحة لنوم عميق لم يقطعه، ولا حتى الرغبة في إفراغ مثانتها، رغم أنها قضت جل وقتها داخل الحلم تبحث عن حمام.

ابتسمت، وهي تسترجع أحداث حلمها الطويل، ثم أزاحت اللحاف الثقيل. أنزلت ساقها الموجوعة، ثم الأخرى، وراحت تبحث في الظلمة، عن فردتي نعليها "كم الساعة الآن؟ هل فاتتني صلاة الفجر؟". سارت بخطوات متعثرة إلى النافذة. حركت الستارة "طلع النهار."

اتجهت إلى الحمام، وهي تقول بصوت مسموع "نسيت نفسي في النوم" وانتظرت أن تسمع ردًا أو حركة. ثم تذكرت أن اليوم جمعة وأحمد وزوجته والأولاد مازالوا يغطون في النوم.

في المطبخ حاولتْ أن تكتم أصوات تحركاتها. ابتلعتْ حبة الدواء، ووضعتْ ماء في إبريق الشاي، وهيأتْ القدح والملعقة. وضعتْ في صحن صغير، قطعا من الكعك، ثم صبت الشاي وحملتْ فطورها إلى غرفتها. وضعتْ الصينية على المنضدة الصغيرة بجانب السرير الذي جلستْ عليه، ولفتْ اللحاف بإحكام حول ساقيها. وبعد رشفة من الشاي، دست يدها تحت المخدة، وأخرجتْ دفترا صغيرا، وقلم رصاص.

** * **

حين رن الهاتف بعد ساعات، انفجرتُ "أين كل هذا الغياب؟ ماذا حدث؟" قال أشياء كثيرة فهمتُ منها أنه اضطر للخروج.. كانت هناك مشكلة ونسي الهاتف مغلقا. قاطعته "ادخل في الموضوع. ما حكاية الكنز؟"

- تعرف بعد وفاة الوالدة، تركنا دولابها في الغرفة كما هو، وقبل أيام، فكرت سميرة أن توزع ملابس المرحومة، وأشياءها، حتى يمكن للأولاد الاستفادة من الدولاب وأيضًا.. يعني.. إلى متى نحتفظ بحاجاتها، الله يرحمها.. أنت تعرف.. مرت خمس سنوات، والأولاد كبروا.

استعجلته:

- استمر.. استمر

- بين الملابس وجدت سميرة هذا الدفتر.. كانت سترمي به جانبًا، لأن همها كان في الملابس، والحقائب وأشياء نسائية اخرى، ولكن الله ألهمها أن تقلب في الدفتر.

كاد صبري ينفد:

- دفتر؟ أين الكنز إذن؟

ضحك أحمد:

-يا أخي صبرك.. ما تعلمت شيئا من برود الإنجليز؟

اسمع، كنت أتفرج على التلفزيون، لما جاءت وألقت شيئا في حِجري.

- هه؟

- كان دفترًا من دفاتر المدارس. طلبت مني أن أفتحه وأقرأ ما فيه.

- وماذا كان فيه؟ ادخل في الموضوع.

- كتبت بخط يدها، على غلاف الدفتر (كل ما أملك)

صرخت فيه:

- لا تقل لي أن أمنا كتبت قصائد شعر! هل هذا هو الكنز؟

- لم تتغير أبدًا يا محمود.. متعجل وتطلق الأحكام مسبقًا. يا أخي انتظر واسمعني.

- كلي آذان صاغية.. هه؟

- خذ المفاجأة.. الدفتر فيه أوصاف وعناوين، وتفاصيل بيتين وقطعة أرض، في الأعظمية.

- لا أفهم.

- اقول لك الدفتر مليء بالتفاصيل.

- هل هذه عقارات اشترتها الوالدة؟

- هذا ما يبدو.
- ولكن أين الورق؟ المستندات؟ وثائق الملكية؟
- لم نجد أي مستند؟ فقط الدفتر. ولكن التفاصيل واضحة: المساحات والعناوين وحتى رسومات وخرائط رسمتها المرحومة بيدها.
- يا أحمد.. يا أحمد.. هل فتشت جيدًا؟ لابد أن هناك ورقًا رسميًا في مكان ما. كيف نثبت الملكية؟
- اسمع يا محمود.. أنا سألت أحد الدلالين.. واحد ثقة أعرفه. قال إنه يستطيع تخليص المسائل. بقليل من الجهد وبعض المصاريف. مطلوب منك الآن أن تبعث لي توكيل عنك من السفارة.. محمود.. محمود.. أنت على الخط؟

لم أرد عليه. كنت أقلب الأمر في رأسي.

- نعم أسمعك. ولكن لا ضرورة للتوكيل. أنا قادم بنفسي. سوف أحجز على أول طائرة. انتظرني.

**

حين ألتقطني أحمد بسيارته من ساحة عباس بن فرناس، كانت عيناي موزعتين بين الشيب في شعره وتغضن جبينه وشوارع بغداد:

- ماذا حدث لكم في العشرين سنة التي غبت فيها؟
- الكثير!..
- هل هذه بغداد؟ وأنت ماذا جرى لك؟

كان أصغر مني بخمس سنوات ولكن بدا، وكأن أربعين سنة حطت على كتفيه.

نظر إلي مليا ثم قال:

- الحمد لله. أنت نجوت من هذا.
- ولكن حياتي هناك لم تكن سهلة أيضا.
- على الأقل كنت آمنا. تدخل وتخرج وتعيش حياتك، دون أن يترصدك الموت.

أردت أن أغير الحديث.

- هل تعلم؟ لولا وجودك لضعتُ في بغداد. لما عرفتُ أي الشوارع أسلك.. يا إلهي!

اختفت المربعات الخضراء، وانتصبت أكوام القمامة والجدران الكونكريتية الصماء. باعة جائلون في كل مكان يفرشون بضاعتهم على الأرصفة، على عربات خشبية، وعلى اكتافهم.

- وماذا جرى للبيوت؟ أين الحدائق؟
- بنوا عليها أو باعوها.
- باعوا حدائقهم؟

حدق أخي في وجهي وكأنه يرى كائنا هابطا من المريخ: قال:

- الحمد لله على السلامة.

** * **

بيت شارع الضباط

يمكن الدخول إليه من شارع الضباط، من الفرع المحاذي لدكان أحمد الأبرش، ثم أول شارع إلى اليمين. ثاني بيت إلى اليسار، البيت من طابقين، بحديقة صغيرة أمامية. إلى يمينه مساحة خضراء مستطيلة، تفصله عن البيت المجاور.

في مقدمة البيت سلالم صغيرة، تفضي إلى الباب الرئيسي، الذي ينفتح على (المجاز) ومنه إلى غرفة الضيوف، غرفة المعيشة، تليها غرفة نوم. أمامها ممر صغير، يؤدي إلى غرفة أخرى والحمام والمطبخ. في الطابق الثاني ثلاث غرف نوم صغيرة.

في الخلف حديقة كبيرة. مساحة البيت والحديقة 600 متر مربع. الحديقة مسطح أخضر تحيطه أشجار نخيل وتوت وبرتقال وهناك شجرة مشمش وارفة، ترتفع فتحاذي سطح البيت حتى يمكن لمن يمد ذراعه من سور السطح أن يلمس غصنها.

تركتْ الورقة، ومدتْ ذراعها، وهي مازالت تمسك بالقلم.. مدتها إلى الأعلى، ومست غصنا في سماء الغرفة.

** * **

قلت وأنا أجول بنظري مثل المحموم، على حيطان البيوت في حينا القديم:

- أين أشجار النارنج في حدائق الجيران، حين كنا نخطف ثمارها؟

قال أحمد :

- اتصلتُ بالدلال، وسوف نراه هذا المساء. اسمه أبو جمال.

- كنا نختبئ عند النواصي لنمتص عصيرها.

نظر إلي أحمد وقال:

- الحمد لله على السلامة. إنزل من آلة الزمن. وصلنا إلى عشرين سنة في المستقبل.

في المساء، وصل أبو جمال، وجلس ينصت، ويلقي نظرات على دفتر أمي، ويقاطع أحمد بين حين وآخر:

- نعم.. نعم.. بيت شارع الضباط.. أعرف المكان، ولكن أكيد هذا بيت قديم من أيام أحمد الأبرش؟
الرجل مات من ثلاثين سنة، والدكان اختفى قبل ذلك
سوف ابدأ بهذا البيت. غدا إن شاء الله يصلكما الخبر الأكيد .

تبادلت وأخي نظرات أمل وتفاؤل.

قال أحمد :

- ألم أقل لك لن يحلها إلا أبو جمال؟

** * **

بيت رأس الحواش

أول عطفة بعد مكتبة الصباح. رابع بيت في شارع ضيق. طرازه شرقي. يفتح الباب الخارجي على ممر طويل مسقف، يحيط بفناء داخلي مفتوح إلى السماء، تتوسطه نخلة باسقة .

أربع غرف حول الحديقة: واحدة ستكون لأحمد وأخرى لمحمود والثالثة لها، والرابعة لاستقبال الضيوف .

الحمام تحت السلم الحجري المفضي إلى السطح، إلى جانبه المطبخ. تجلس في غرفتها ترقب الجداول، التي يصنعها المطر في الفناء والممر الذي يلتف حولها. تشعر بالرغبة الشديدة للذهاب إلى الحمام .

حين تدخله، تصدم بمرآه.. حفرة في الأرض. تقف متحيرة.. سوف يحتاج الحمام إلى تجديد.

** * **

انتظرنا في اليوم التالي اتصال الدلّال أبي جمال، حتى وقت متأخر من الليل، دون جدوى. وحين طال انتظارنا، في اليوم التالي أيضا، قلتُ لأخي بنفاد صبر:

- كلمه أنت
- لا يرد
- وماذا يعني هذا؟ هل ننتظر إلى ما لانهاية؟

في المساء، تلقينا اتصالا منه. كانت مكالمة طويلة لم أسمع منها سوى ردود أخي، على ما بدا حديثا مستفيضا، من أبي جمال.

- معقولة؟... أنت متأكد؟

وبعد فترة صمت سأل:

- وبيت رأس الحواش؟

فترة صمت

- ماذا نفعل الآن؟

استمع أخي قليلا ثم أنهى المكالمة، والتفتَ إليّ وهو يضحك ساخرا:

- لا وجود لبيت بهذه الاوصاف، في شارع الضباط، ولا البيت في رأس الحواش.
- لحظة.. لحظة. هل تبخرت البيوت؟
- تعال أشرح لك.

أخذني إلى غرفة الصالون. جلسنا متقابلين .

- يقول الرجل إنه ذهب إلى البيت الأول، وسأل عن البيوت في الشارع، واحدا واحدا، وذكر اسم الوالدة، فما عرفها أو تذكرها أحد. ولا رأى بشر منهم، بيتا بهذه الأوصاف، في شارعهم. ثم

ذهب إلى رأس الحواش فضحك الناس لسؤاله، لأن البيوت على الطراز الشرقي، اختفت من الوجود. قيل له إنه فعلا كان هناك بيت يشبه الوصف، ولكنهم سمعوا، أنه هدم منذ ستين عاما، وحل محله منزل حديث الطراز.

- ألا يمكن أن يكون البيت من أملاكها، وقد أعادت بناءه؟

- اصبر قليلا، لأكمل لك. يقول أبو جمال أنه ذهب إلى أحد معارفه، في الطابو[13]، وبعد دفع المعلوم فتح الموظف السجلات القديمة، ولم يجد اسما للوالدة، أو لأحد من أهلها أو عشيرتها في الأعظمية على الإطلاق.

- والأرض؟

- لم يذهب. يريد أن يقبض أتعابه، والرشوة التي دفعها أولا، قبل أن يتحرك مرة أخرى. كان غاضبا، يحسب إننا ضحكنا عليه، وبعثناه في مهمات عبثية ضيعت وقته.

أمسكت ذراع أخي:

- اسمع.. سوف نعطيه أجرته والمصروفات، ولكن دعنا نذهب بنفسينا إلى الأرض. بصراحة ليست لي ثقة بهؤلاء السماسرة.

- معك حق. غدا الجمعة نخرج في الصباح الباكر.

** * **

[13] الطابو: كلمة تركية تعني (سند الملكية) واستخدمت في العراق عند تأسيس دائرة تسجيل العقارات في العصر العثماني، باسم (دائرة الطابو) وصارت تطلق على المكان.

أرض الشماسية

أي حظ سعيد هذا، أن تجد هذه الأرض الفضاء بين صف من البيوت الصغيرة، تحيطها حدائق خضراء! في وسط الأرض لافتة مرفوعة على خشبة مكتوب عليها (للبيع)، ورقم هاتف. سارعتْ لتسجيله، وكان أول شيء فعلتْه عند العودة، هو الاتصال بالرقم. الطريق إلى الأرض، طويل يمتد من ساحة (صالح مهدي عماش) تنهض على جانبيه أشجار النخيل، ثم في نهايته تهبط يمينا، الى شارع مترب، وفي أول عطفة إلى اليسار تجد الأرض الموعودة، ثاني قطعة إلى يسارك.

** * **

قال أخي ونحن نقترب من الساحة:

- اسمها الآن (ساحة أُحُد) وهذا الطريق إلى اليمين، يتجه إلى جسر الصليخ الجديد. هذا هو طريقنا.

** * **

كان صباحا رائقا. ركبنا السيارة قبل الظهر، واجتزنا شوارع رمادية بحواجز الكونكريت، ولكن الطريق المتفرع من الساحة المؤدي إلى الأرض، كان متعة للعين. بغداد كما أتخيلها دائما: أشجار باسقة، وخضرة لا تنتهي.

- أحمد، هذا هو المنحدر، كما في الوصف. يبدو أننا وصلنا .

ترجلنا من السيارة، وتلفتنا حولنا. شوارع فرعية عديدة، على جوانبها، صفوف من البيوت المكدسة. ليس ثمة أية أرض فضاء بينها.

قضينا الساعات التالية، نطرق الأبواب، ونروي القصة مرة وأخرى. رجعنا الى السيارة نجر أقدامنا المتعبة. فتحنا الباب، وارتمينا في الداخل. قال أخي:

- لا أفهم.
- ولا أنا.. هل ركبت الطائرة، وقطعت كل هذه المسافة، بلا جدوى؟

ونظرتُ إلى أخي معاتبا، فسارع إلى القول:

- لم أطلب منك المجيء. كانت فكرتك. كل الذي طلبته توكيلا منك.

قلت ساخرا:

- كنز الوالدة؟!

أخرجت هاتفي النقال، ونقرت عليه بأصابع مرتعشة، من الغضب الذي يتصاعد في داخلي، وأنا ابحث عن الرسالة، وقلت وانا أقرب الهاتف من عينيه:

- أنظر من كتب لي "وجدنا كنز الوالدة" ؟؟

صرخ أخي وهو يدير محرك السيارة:

- أنا مثلك، لا أدري ماذا حدث.. لا أفهم أين الخطأ..

** * **

هبتْ فزعة من نومها. ما كان هذا؟ جلستْ على السرير، مشوشة الذهن. حاولت استرجاع ذاكرتها، ونبض قلبها المتسارع.

كان حلما غريبا، لا يشبه أحلام كل يوم، ولكنه كان.. ابتسمت وهي تستعيد أحداثه.

كانت جالسة مع سميرة زوجة أحمد، في غرفتها في بيت ابنها، وفجأة، وجدت نفسها ترتفع عن الأرض، مدت ذراعيها الى أعلى، فطارت الى سماء الغرفة، صاحت وهي تخرج من الشباك: "انظري.. سميرة.. إني أطير."

حوّمت حول البيت، مثل طائر يجرب جناحيه، ثم ارتمت على لجة هواء، وارتفعت، رأت ولديْها على سطح الدار، يلوحان لها، وهي تصرخ بأعلى صوتها "أنظرا كيف أطير"!

حتى صار الولدان نقطتين نائيتين، واختفت هي بين الغيوم قليلا، ثم أشرعت ذراعيها إلى الأسفل، فانحدرت هابطة.

مدت يدها تحت المخدة، تبحث عن الدفتر. لم تجده. لكنها وجدت القلم تحت السرير، وورقة بيضاء على المنضدة القريبة.. بدأت تسجل تفاصيل الحلم.

القاهرة - 2015

نزهة

(يمكن اعتبار هذه القصة امتدادا لقصة نشرت في 2008 بعنوان:
"لماذا لا نذهب إلى البحر كثيرا؟")

وقفت أتأمل وجه ياسر، مغمض العينين، منفرج الشفتين، كما اعتاد أن ينام نوما خفيفا، قد يقطعه صوت، أشبه بالعويل ينبعث من أعماقه، تتسع حدقتاه رعبا لحظات، ثم يعود الى النوم. عندئذ نعرف جميعا أن الكابوس المعتاد قد زاره مرة اخرى "رأيت وحشا يهجم علي" كان يقول في صباح اليوم التالي. وكان أحمد أكبر الأشقاء يقول بلا مبالاة "لأنه يتفرج على أفلام رعب."

أما أحمد فإنه ينام نوما ثقيلا أشبه بالإغماءة. تظل عيناه نصف مفتوحتين، ولم يكن من السهل ايقاظه، قبل أن يفعل ذلك بنفسه. حتى وهو طفل، كان يخلد إلى النوم ليلا، فلا يفيق إلا في الصباح، هل كان ذلك يريحني؟ أبدا. كنت أستيقظ فزعة بين ساعة وأخرى، وأقترب منه لأتسمّع صوت تنفسه، فأتأكد أنه على قيد الحياة.

على نقيض شريف، الذي كنا نتندر أنه يدعي النوم ليلا، ونسأله إن كان حقا ينام مثل الناس. حتى الآن، وأنا أتأمله وهو يضطجع على جانبه الأيمن، مُولٍّ وجهه صوب أحمد، ويبدو كأنه مستغرق في النوم، كنت أحدس أن أي حركة صغيرة ستبدر مني، ستجعله يلتفت إليّ متسائلا، إذا ماكنت أعاني من الأرق.

ولوهلة افتقدت رأس رفيق. أزحت اللحاف. كان مكورا تحته، وكنت قد أقنعته بصعوبة، أن يغادر سريري هذه الليلة، وينام مع

إخوته. خصلات من شعره تلتصق بجبينه. أحكمت وضع الغطاء حول كتفيه.

وقفت أتأمل رؤوسهم السادرة في غفوتها، وتراءى لي شيئا فشيئا أنها لا تمت لي بصلة. عندها أحسست بتبلد وتصميم القاتل الذي يتربص بضحيته. إنهم اقوى مني: رفيق قوي بطموحه، وشريف بحذره، وياسر بخياله، أما أحمد فهو زعيم بالفطرة.

تطلعتُ إليهم مرة أخرى بإدراك جديد. رأيت في وجه كل منهم، الرجل الذي ينبئ به. أين أنا من عالمهم القادم؟

انسحبت من الغرفة، وأغلقت بابها بهدوء وحزم، شاعرة أني أنسلخ من جلد الأم، وأعلقه على ذلك الباب الذي انطبق على حيوات صارت، لِما أنا مقدمة عليه، ماضية. عجيب كيف يمكن لباب من الخشب، صنعه نجار عادي أن يكون متواطئا فيما عزمت عليه، فها هو يتحول إلى جبل يفصل عالمين. لو كان في هذا الباب، شرخ يمكن أن أطل منه ثانية على النائمين خلفه، لانهار عزمي تماما، ولكن الباب كان صلدا، مصمتا، محكم الاغلاق.

أسرعت الى غرفتي، وأنا أحس كأن هما انزاح أخيرا، كان يثقل روحي. فتحت دولاب الملابس وتحيرت.. ماذا اختار؟ استقر رأيي، على فستان بسيط للخروج. ارتديته على عجل. وأمام المرآة عقصت شعري بشدة، وتطلعت إلى صورتي. كانت ملامحي جامدة على شيء من القسوة والقبح. لم أتعرف على نفسي. هذا حسن. كان ينبغي أن أنفصل عن ذاتي. خلعت قرطيّ والخاتم. هل اكتب رسالة؟ ولو ذكرت لهم السبب.. هل سيفهمون؟ تناولت

سيجارة من العلبة التي لم أعد أخفيها عن عيونهم، منذ ذلك اليوم.. متى كان ذلك؟ هل كان الوقت أواخر الشتاء؟ بل كان الوقت أواخر الشتاء.

توقفنا بالسيارة الصغيرة على شاطئ البحر. لم يصدقوا حين وافقت أن يخلعوا ملابسهم، ويرتموا في الماء.

ولكن الشمس يومها كانت ساطعة. وكنا في طريقنا إلى خارج المدينة الساحلية، وكنت قد غادرتُ ما خيل لي إلى الأبد، الأمل الذي رعيته في وجداني، هذه السنوات الأخيرة.

كانت رؤوس الأولاد، تغطس وتعلو وسط التماعة الموج الفضي، الذي تلهو به نسائم منفلتة من ربيع مبكر، وكانت صيحاتهم تمتزج بصراخ النوارس المتقطع. هل كانت الرخصة التي أعطيتها للأولاد للانطلاق، تعويضا، عن الحصار الذي ينشب انيابه بروحي.

استرقت سيجارة من المخبأ الأمين، تحت كرسي القيادة وأشعلتها. نفثتُ دخانها، مع ما ظننته كل الهمّ الذي تراكم في هذه الرحلة اللعينة. لتكن هذه اللحظة هي الفاصلة. من الآن. من هذه الآن.

سأبدأ حياة جديدة ولكن أليس هذا ما أقوله في كل مرة؟ ثم أرجع تشدني سلاسل الماضي؟ لا أدري لم تراءت لي تلك اللحظة، مختلفة.. جديدة.. وحقيقية.

تلفت حولي.. كان كل شيء في الغرفة مرتبا. هل نسيت شيئا ما ينبغي ألا اتركه خلفي؟ كنت قد أحرقت بالأمس رسائل وصور. الوثائق الرسمية موضوعة في مكان ظاهر على المنضدة إلى جانب النقود. هل هناك شيء آخر؟ هل أكتب رسالة؟ ماذا يقال

في هذه المناسبات؟ "آسفة وسامحوني"؟ ولكني لا أشعر بالأسف حقا ولا أنتظر أن أنال مغفرة أحد.. لقد وصلتُ أخيرا حد احتمالي. ومنذ يومين وأنا أخطط، مع سبق الاصرار أن أغلق أبواب هذا الجحيم. أشرعت مصاريع النافذة الكبيرة. كانت السماء تحتقن بخضاب الفجر.

- حان وقت الرجوع.

انهمك الجميع في ارتداء الملابس، وأجسادهم مبللة بماء البحر.

"هل أرتدي حذائي؟"

قفزوا إلى السيارة.

"هل ارتدي الحذاء؟"

تسلقت إفريز النافذة، والتفت حولي جازعة.

كنت قد نظرت في وجوههم واحدا واحدا.. أولادي الأربعة.

"ما رأيكم بهذه النزهة؟"

لم أسمع إجابتهم.. كنت قد ارتميت على لُجّة هواء. أحسست نفسي خفيفة، وثوبي ينتفخ حتى يغطي عيني .

"كانت هناك أغنية والسيارة تسرع باتجاه البيت "

أغمضت عيني، وشعرت بأني لبثت معلقة في الهواء برهة، كأنها الأبدية، ثم بدأت أهبط بسرعة إلى..

"ماذا كانت الأغنية؟"

لكن الأرض كانت تقترب.. لم يعد هناك..

القاهرة - 2015

مونولوج

تأمل الرجل المرأة الواقفة أمامه.. سمراء، شعر قصير مجعد أسود، بنطلون متهدل وقميص داكن لا يناسب لون بشرتها. لم يسألها عن سنها، كانت تبدو في الستين أو أكثر قليلا. سألها:

- هل هذا ما ترتدينه في البيت؟

هزت رأسها إيجابا. أشار إلى أريكة في وسط المكان، قائلا:

- تمددي هنا.

ذهبت طائعة واضطجعت على الأريكة. عدلت ظهرها. أمسكت بكتاب كان موضوعا على منضدة صغيرة قريبة، قلبته، قربته من عينيها، ثم أطبقته وأعادته إلى المنضدة.

سار الرجل مبتعدا عنها، نزل درجات السلم بخفة، وجلس على مقعد في مواجهتها، وأشار اليها أن تتكلم، وهو يهمس لمساعده الشاب الجالس إلى جانبه:

- شاهد ما يحدث الآن.

** * **

(لم يكن حامد زوجا تقليديا. ترك لي مطلق الحرية أن أفعل ما أشاء. أذهب أينما أرغب. بل ربما كان يسعده غيابي عن البيت ليتفرغ للكتابة. لا أدري لماذا لم استفد من وجوده وعلمه لأفعل شيئا نافعا في حياتي. كنت اتمنى أن أدرس لشهادة الماجستير ولم أفعل، مع أن الوقت كان ملكي فلم يكن لدي أطفال يشغلون ساعات

يومي. ولكن حين أفكر الآن في هذه المسألة، أشعر أنه لم يقدم لي التشجيع الكافي. في الجامعة مثلت بعض الأدوار في مسرحيات الطلبة، ولكني لم أستمر أيضا. ربما لم يكن لدي الشغف؟ أم هل كان السبب انهماكي في تمريضه طوال النصف الأخير من حياته؟ مع ذلك كنت رفيقته في نهمنا للكتب. وحين رحل تاركا لي مكتبة عامرة، صرت أقضي معظم وقتي في القراءة. كتب تحت السرير، فوق السرير، على الأرائك، في حقيبة الخروج، حتى على رفوف المطبخ. أقرأ من هنا صفحة وأخرى من هناك.. ولولا انشغالي هذه الأيام بصفحة الفيسبوك، لقتلني الفراغ. هل كان حامد أنانيا لا ينظر خارج نفسه؟ كان يمكنه دفعي للحصول على الماجستير وربما الدكتوراه. كنت سأصبح مثل نبيلة أستاذة جامعية. أو لو وجهني إلى المسرح لكنت الآن ممثلة يزدحم وقتي بالعمل، أو لو كان.. ماذا كنت أريد أن أفعل؟ ربما أتعلم لغة أجنبية؟

صديقتي أحلام تقترح أن أتعلم التصوير الفوتوغرافي، لأني أحب أن أصور بالتاب كل شيء أجده أمامي. لم أكلمها هذا اليوم. كم الساعة الآن؟

***

تتناول التاب من المنضدة، تنظر فيه ثم تتلفت حولها "يحتاج الى شحن. اين وضعت الشاحن؟"

تنهض من الأريكة. يقف الرجل قائلا:

- لا.. لا.. لا تغيري وضعك. استمري في الكلام.
- ولكن يجب أن أشحن التاب.

أشار الرجل إلى مساعده الذي قفز إلى جانب من المكان، مد سلك (المشترك) إلى حيث منضدتها وأوصل التاب به. تنظر إلى الأريكة مليا قبل أن تتمدد عليها مرة أخرى.

** * **

(الأريكة تحتاج إلى تنجيد. وعلى ناصية شارعنا منجد سوري ممتاز. كما يقولون يده تستأهل اللف بالحرير. ولكن لابد من اختيار قماش لائق. يا ترى أي لون كان حامد سيفضله؟ كان دائما يحب اللون الأزرق. وهو لون هادئ، ولكن لن يناسب السجادة الجديدة).

تأخذ مرآة من المنضدة وترفعها إلى وجهها، وهي تمرر سبابتها اليسرى على تجاعيدها. تضحك متهكمة.

(وجهي الذي يحتاج إلى تنجيد. والله كلامك صحيح يا أحلام حين تقولين "إذا سألك أحد عن سنك قولي: سن شابتين في الثلاثين وطفلة في الخامسة من العمر" ولكن يا صديقتي، واحدة من الشابتين استهلكت في الثلاثين سنة التي قضتها مع المرحوم، وتحتاج إلى استبدال بعض أعضائها: عين جديدة، ومفاصل، وغدد، وشعر كثيف، وأهم من ذلك.. روح خالية من الهموم.

أين ذهب التليفون؟ هل تركته في غرفة النوم؟ آه.. كان تحتي طول الوقت! الحمد لله لم أكسر الشاشة مرة أخرى. سلوى.. يا سلوى.. يا ترى ماذا تفعل الآن؟ آلو.. صباح الخير.. مساء الخير؟ صباح مساء لا فرق. صحوت قبل قليل ولم أفطر بعد. ماذا تفعلين؟ ما هو برنامجك اليوم؟ مثلي.. اشعر بكسل رهيب. كنت أريد أن أسألك عن اسم الدواء الذي تستخدمينه لعلاج تساقط

الشعر. أعرف إني كتبته أمس، ولكني أضعت الورقة. هه.. قولي. سأكتبه.. على مهلك. طيب اذهبي الآن، وأنا؟ آخذ حبة الضغط وأتناول الفطور. سلام .

أين أنت يا أحلام..؟ لا أدري كيف كنا نعيش من غير الهاتف النقال. آلو؟ أخيرا.. ضربت لك عشرات المرات. ماذا يلهيك عني؟ ما هذا الضجيج؟ يبدو أنك لست في البيت.. كالعادة. أين أنت؟ في النادي؟! ألم أقل لك من قبل أن تمري عليّ كلما ذهبت إلى النادي؟ تعرفين أني لا أستطيع التحرك بسبب وجع المفاصل. ماذا؟ أنا صاحية من الفجر. طيب، طيب.. استمتعي بوقتك.. ولنا الله. سلام.

لو كانت السيارة معي لفعلت مثل أحلام. ماكنت لأجلس لحظة واحدة في البيت. الله يسامحك يا حامد. كان المفروض وهو المريض سنوات طويلة قبل رحيله أن يسجل السيارة بإسمي. حين أفكر بموقفه، تصدمني أنانيته. لقد شاركته في شرائها بمالي، وبعد وفاته، جاء ابن أخيه وأخذ السيارة قائلا "السيارة إرثنا جميعا، وفي أي لحظة تحتاجينها يا عمتي، ليس عليك إلا أن تكلميني" ولم أره أو السيارة بعد ذلك اليوم. كم مر من السنوات؟ ثلاث؟).

** * **

سأل المساعد: هل خرجت عن النص؟

قال المخرج: أي نص؟ ليس هناك نص.

قال المساعد: لا أفهم.

أجاب المخرج: هي تكتب نصها. هذه تجربة فريدة. اسمع، أنا أعرفها منذ سنوات طويلة، وكنت أحلم دائما بأن أجلسها على الأريكة، في وسط المسرح وأتركها تحكي.

قال المساعد: وكيف نعرف أنها انتهت؟

أجاب المخرج: حين تصل إلى نقطة أراها نهاية جيدة أسدل الستارة.

سأل المساعد: وفي الحفلة التالية، هل سوف تتذكر هي كل الذي قالته لتعيده؟

قال المخرج: ومن قال إنها ستعيد؟ ألم أقل لك انها تجربة فريدة؟ سوف نتركها تحكي ما تشاء كل ليلة، طوال مدة العرض.

قال المساعد: أنت تراهن عليها!

أجاب المخرج وهو ينظر إليه نظرة العارف: والرهان مضمون.

** * **

(قبل هذا البيت، بحثنا كثيرا عن شقة مناسبة، ولكن حامد لم يكن يرغب في مكان قريب من الأرض، كان يبحث عن الأدوار العالية بعيدا عن الضجيج كما كان يقول. وهكذا اختار هذه الشقة في الدور الخامس، والعمارة بدون مصعد. كنا شبابا، قبل ثلاثين سنة، نصعد السلم قفزا. وكان في أواخر كل شتاء، يقف أمام شباك الصالة ويناديني "تعالي، أسرعي، انظري هذا المشهد").

تنهض من الأريكة متحاملة على نفسها، وتحاول أن تسرع إلى شباك قريب .

(كان يقول وهو يشير الى شجرة باسقة تكاد تصل أطرافها إلى شباكنا: انظري هذه أول وردة حمراء تنبتها الشجرة الجرداء، هديتي لك هذا الصباح).

تلتفت إلى الرجل، وتخطو إلى مقدمة المسرح، تخاطبه:

- أين الوردة الحمراء وأين الشجرة؟

يبهت الرجل وينظر متسائلا إلى مساعده، ثم يسألها:

- هل طلبت مني أن أضع شجرة أو زهورا؟
- ولكن أنت المخرج!!
- كان اتفاقنا أن نضع الأريكة وأنت عليها لتستعيدي ذكرياتك وليس شيئا آخر.
- ولكن الشجرة خارج نافذتي كانت جزءا من ذكرياتي.
- انت الممثلة، استخدمي خيالك، لا تنسي أنك ذكرت حامد ولم نستحضره بشخصه.

تراجعت إلى الأريكة وجلست عليها وهي تقول يائسة:

- حامد مات، ولكن الشجرة مازالت حية.

وقف المخرج واقترب من مقدمة المسرح:

- اسمعيني.. ما تقولينه غير معقول. اتفقنا أن هذه تجربة فريدة، ليس فيها نص أو ديكور سواك والأريكة. كيف لي أن أعرف أنك ستذكرين الشجرة؟ طبعا جئنا بالتليفون والتاب لأنهما من الأشياء البديهية، ولكن شجرة؟ كيف لي أن أعرف ما تفكرين به؟

نهضت واقفة أمامه وقالت بحدة:

- ولكن عالمي ليس مجرد أريكة متهالكة أجلس عليها أحدث نفسي. هل التجربة الفريدة التي تتحدث عنها هي السجن داخل أسوار ذكرياتي؟

- لقد اتفقنا على هذه التجربة...

قاطعته:

- اسمعني جيدا.. الشجرة هي الكائن الوحيد الحي الذين أعايشه في بيتي، ماعدا طبعا الفأر الذي يتسلل أحيانا، ويترك آثاره هنا وهناك. ولكني لا أراه. أما الشجرة فإني أرقبها وهي فروع خشب جرداء ثم فجأة أنهض يوما في الصباح، فأرى ورودا حمراء كبيرة تتناثر في أضلعها، ثم أجدها في يوم آخر وقد نفضت تلك الورود، واكتست بحلة خضراء. وأنت المخرج، كيف فاتك أن الشجرة هي الشيء الوحيد الذي يشعرني بتعاقب الفصول؟ بأني ما زلت على قيد الحياة؟

تلتقط تليفونها والتاب، وتنظر حولها ثم ترفع يدها في وجه المخرج:

- كلا.. لا تقل شيئا.. آسفة، ولكني أحس باختناق، أحتاج إلى الهواء الطلق.

تغادر المسرح.

المساعد يلتفت الى المخرج:

- هل نسدل الستارة هنا؟

القاهرة - 2016

كوميديا سياسية

فيما يلي ثلاث قصص يمكن اعتبارها (كوميديا سوداء سياسية) كتبتها في ثلاث أشهر متعاقبة من شهر نيسان/إبريل -حزيران/يونيو1990- ونشرتها في صحف عراقية ولكن لم أضمنها من قبل في مجموعة. وبما أني أجمع أعمالي المتناثرة على مدى السنوات فلم أجد ضيرا من إلحاقها بهذه المجموعة، فهي وإن كتبت في 1990 ولكنها صالحة لهذا العصر جدا. كان الدافع لنشر هذه القصص هو تصاعد التهديدات للعراق بعد خطاب الرئيس الراحل صدام حسين في 2 نيسان/ابريل 1990 والذي قال فيه: "والله لنخلي النار تاكل نص إسرائيل إذا حاولت على العراق."

** * **

تل أبيب ترتدي الأقنعة

(نشرت في صحيفة "القادسية" العراقية في 1990/4/16 بعد اسبوعين من إذاعة خطاب الرئيس صدام حسين الذي هدد بحرق نصف إسرائيل إذا اعتدت على العراق)

في الدقيقة الخامسة عشرة التالية للخطاب، تلقى موشي يديعوت، أحد رجال أعمال تل أبيب نداء هاتفيا من مدير مكتبه. انتفض واقفا على إثره وأدار زر التلفزيون، ثم قال وهو ينضو عنه بيجامته:

- اسبقني الى الشركة حالا.

وما أن استقر في مكتبه حتى طلب مدير المخازن:

- أريد إحصائية دقيقة بكل الموجود لدينا.

وبدا الارتباك على الموظف وإن لم تبد عليه الدهش:

- الآن؟
- فورا.

ثم التفت الى مدير مكتبه وقال:

- ابعث تلكس للشركة الموردة واطلب كمية بعدد نفوسنا الحالي
- بالسوفيت؟
- كلنا.. كلنا. هذه صفقة العمر!
- وبالعرب؟

حدجه يديعوت بنظرة باردة ساخرة. وكأن مدير المكتب التقط فجأة الفكرة التي تراود رئيسه فتبسم ماكرا وقال وهو يتجه الى غرفته:

- بدون العرب.

بعد ساعة من الزمن. كان السيد موشي يديعوت يركب سيارته متأبطا حقيبة تضم نماذج من البضاعة. كان يحس أن عليه ان يتصرف الآن لاغتنام هذه الفرصة الذهبية ولهذا لم يستطع الانتظار حتى الصباح. قاد السيارة الى منزل تحيطه حراسة مشددة. ولكن الرجل الذي استقبله بحفاوة سرعان ما قطب جبينه حين عرف الغرض من الزيارة استأذن ان يتكلم بالهاتف. ثم عاد بعد لحظات وأعلن أن إجابة الطلب مستحيلة إذ من شأنه إثارة الذعر في هذا الظرف الدقيق لاسيما وسط المهاجرين الجدد.

استمع السيد يديعوت للمبررات بقلب واجف وهو يحس بتسرب الصفقة من يديه، وقال متشبثا:

- ولكن الوضع اليوم يختلف. هل استمعت إلى الخطاب؟ أنت تعرف طبعا ما يعني أن يكون لديهم..

قاطعه الآخر بحزم:

- أعرف بدون شك. ولكننا سنكتفي بالموجود في مخازن الجيش والدفاع المدني. هذه هي الأوامر.

أدرك رجل الأعمال أن المقابلة انتهت فتراجع بأدب، ولكنه لم يدع اليأس يتطرق الى نفسه بعد. ففي ساعة متأخرة من تلك الليلة طرق باب صديقه هاري بنزيمان عضو الكنيست الذي قال بعد أن سمع الحكاية:

- لقد جئتني في الوقت المناسب. عندنا اجتماع طاري غدا.

- هل يمكن ان تطرح هذه المسألة؟ لاحظ أنها قضية تمس أمن كل إسرائيلي.

قال صديقه بحرارة:

- طبعا. لا أستطيع أن أصدق موقف الحكومة. هذا أقل ما يمكن أن توفره لأي مواطن.

- إذن اعتمد عليك في إثارة الموضوع؟ هل تعرف ماذا تعني هذه الصفقة؟ ستكون إنقاذا حقيقيا لي.

قال عضو الكنيست:

- بصراحة إني لا أفكر بشخصك الآن وإنما بالناخب الإسرائيلي الذي وضع ثقته فينا.

واستمر يديعوت يقول بنعومة:

- ولاحظ أني لن أنسى وقفتك معي. نسبة 2% مبلغ لا يستهان به. هل تتصور ذلك؟

رفع النائب سبابته مقاطعا:

- بل 5%

نهض يديعوت وهو يضع يده على حقيبته، وقال بحسم: "اثنان ولن أزيد."

في اليوم التالي، وقف عضو الكنيست في ختام الاجتماع وبعد مقدمة تاريخية طويلة، طالب الحكومة بحماسة بالغة، بتوفير قناع واق لكل مواطن إسرائيلي واقترح أنه إذا لم يكن في مخازن الجيش ما يكفي فإن هناك رجالا شرفاء، مستعدون لكل تضحية في سبيل تهيئة وسائل الأمان للشعب الإسرائيلي.

وفي هذه اللحظة مال مسؤول كبير في الليكود على مستشاره وقال هامسا:

- ليس من الضروري أن يرتدي الجميع الأقنعة. ألم يكن التهديد بضرب نصف إسرائيل يا إيفي؟

- ولكن أي نصف يا سيدي؟

- ألا نستطيع ان نقرر نحن ذلك يا إيفي؟

التمعت عينا إيفي وهو يقلب الفكرة الشيطانية في ذهنه، ثم قال:

- لن يضار أحد لو نسينا بعض اليهود الروس يا سيدي. وبذلك نضمن تأييد السيفارديم، ونقلب الأمور على رأس المعراخ، وأنا متأكد أن الوافدين لن يترددوا في القيام بهذه التضحية الصغيرة. لقد آن لهم أن يفعلوا شيئا من أجل الوطن الأم.

حينما تسرب نبأ هذا الحديث الهامس، دعا حزب المعراخ الى عقد اجتماع عاجل في ذات المساء حاول فيه رئيسه أن يهدئ

النفوس ويلم الكلام الغاضب، ويؤكد لهم أن تشكيل حكومته بات يقينا وأن الليكود لن يستطيعوا أن يمنعوا المهاجرين الجدد من الحصول على حصتهم من الأقنعة الواقية:

- لقد التقيت وأنا في طريقي الى هنا مع رجل أعمال -لا أود ذكر اسمه الان- يمكن ان نتفق معه على استيراد كميات كافية من الأقنعة الواقية لحسابنا.

وتطلع حوله باسما يشهد الارتياح الذي بدا واضحا على الوجوه. إلا أن أحد الأعضاء أبدى رغبته في أن يقول شيئا، وما أن أذن له حتى وقف يتكلم بسرعة وعصبية:

- في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا القومي ونحن نمهد لقيام اسرائيل الكبرى، يتآمر رجال الليكود بهذا الشكل البغيض لوأد المشروع من أوله. وأنا أقول لو كان لنصف إسرائيل أن تباد فليكن أولئك اليهود الشرقيون والأفارقة الغارقون بالتعصب والرجعية الذين يسندون كرسي شامير، لا الأشكيناز بناة الوطن.

وفيما راح بعض الأعضاء يصفق بحرارة والبعض الآخر يصفر، رفع الرئيس يديه طالبا الهدوء وقال بروية:

- ليس الآن يادان زيمر، ليس الآن.

وحاول جذبه من كمه ليجلس، ولكن الرجل استطرد وهو يضرب الطاولة بيده:

- لن نسمح بأن يتساوى الأشكيناز[14] المتنورون بالجهلة من السفارديم[15].

وضع بيريز يديه حول رأسه يائسا وهو يتمتم "ليس الآن، بحق داود، ليس قبل تشكيل الحكومة"

وكانت هذه هي الصورة التي نشرتها مجلة (هاعولام هازيه) في عددها الذي صدر في اليوم التالي تحت عنوان (فضيحة سياسية: هل يقضي الصراع داخل الحزب على أحلام بيريز؟)

وسرعان ما التقطت جمعية (الفهود السود) تفاصيل الواقعة فجمعت أعضاءها في مظاهرة اتجهت الى ميدان (ملوك اسرائيل) وهم يحملون لافتات تندد بالتفرقة وتطالب بمساواة اليهود الشرقيين بيهود الغرب. كانت اللافتات تقول (يهود الشرق هم الأصل) (إرجعوا إلى بلادكم أيها السوفيت).

في الوقت نفسه، زحفت نحو الميدان جحافل المهاجرين الجدد الذين لم يتعلموا العبرية بعد، فحملوا لافتات باللغات الروسية والسلافية واليديش، ولبس بعضهم أقنعة واقية مقلدة، وكانوا يهدرون "جئنا للحياة.. لا للموت" "اعطونا مساكن.. لا مقابر" ورد عليهم الجانب الآخر "إتركوا لنا رغيفنا" والتحم الجمعان، وارتفعت عصي، وتراشقت حجارة، واستنجدت قوات الشرطة بالجيش الإسرائيلي فامتلأ المكان بالدبابات وتفجرت القنابل المسيلة للدموع، ولعلعت طلقات رصاص. من شرفة مكتبه، كان

---

[14] الاشكيناز: اليهود القادمون من أوروبا الشرقية، وهم أكثر رفاهية بسبب إعانات وتعويضات ألمانيا الغربية بحجة تعرضهم لتعذيب النازي.

[15] السيفارديم: اليهود القادمون من الشرق وافريقيا، وكان عددهم قد بدأ يوازي أعداد اليهود الأوربيين قبل فتح باب الهجرة السوفيتية.

السيد موشي يديعوت يرقب سحب الدخان وهي تغطي سماء ميدان "ملوك اسرائيل" ويهز رأسه. ثم يرتمي على مقعده منهارا ويقول لمدير مكتبه بيأس:

- إنهم يقتلون بعضهم يا جدعون. هيا اسأل رجلنا في الشرطة عن عدد القتلى، وافتح التلكس مع المورد واخفض الكمية أولا بأول. خرب بيتي يا جدعون، وضاع عليّ نصف الصفقة!

** * **

أزمة الشكولاتة

(نشرت في صحيفة (الثورة) العراقية، بتاريخ 1990/5/8 وهي تسخر من الليدي مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا في ذلك الحين وكانت شديدة الحماسة لفرض حصار على العراق).

حينما دق جرس الهاتف بإلحاح، كانت الليدي بادجر في المطبخ تصنع (تورتة) بالشكولاتة، فيما راح مصورها الرسمي يدور حولها محاولا البحث عن اللقطة المناسبة، ولما كان الأمل معقودا على هذه الصورة، لإضفاء ملامح رقيقة متواضعة لا تملكها الليدي بادجر، فقد كان الاثنان في غاية التوتر والقلق.

رفعت سماعة الهاتف بيدها الملطخة بالشكولاتة لتفاجأ بمن ينقل لها خبرا غريبا.

- ماذا؟ تقول.. شكولاتة؟

وبحركة لا إرادية، أبعدت سماعة الهاتف عن أذنها وتطلعت الى يدها، ثم تداركت وقالت:

- أي نوع من الشكولاتة؟

واستمعت قليلا ثم قالت:

- لا أدري. المسألة تحتاج إلى التفكير. أوقف الشحنة وهات عينة الى مكتبي بعد ساعة من الآن.

وضعت السماعة. ووقفت برهة في ذهول وهي تردد "شكولاتة؟ ماذا يدبرون الآن يا ترى؟"

سارت الى حنفية المطبخ لتغسل يديها بهمة.

انبرى المصور قائلا:

- والصورة يا سيدتي؟

أشارت بيدها لينصرف:

- في وقت آخر.. وقت آخر.

في غرفة الزينة الملحقة بغرفة النوم، جلست الليدي بادجر تتملى وجهها في المرآة. تتبعت مسار الزمن على جبينها، حول عينيها، وفمها، وعنقها. وتنهدت "ماذا تفعل المرأة إذا كبرت وبدأ الناس ينفضون من حولها؟" فجأة لاح لها خاطر عجيب، فخاطبت صورتها في المرآة "ما أشبهني ببلدي بريطانيا، كلانا يتقدم في العمر، وأوربا تزداد شبابا. الكل يعرف أننا موجودتان ولكن كما الحال مع العجائز، لا أحد يعيرنا انتباها"

وفيما هي مسترسلة في خواطرها، دخلت جين، وصيفتها، الغرفة فبادرتها:

- اخبريني يا جين: ماذا تفعل المرأة إذا.. يعني.. إذا جاوزت سن الشباب قليلا، كي تحوز انتباه الناس؟

فكرت جين قليلا، ثم هزت كتفيها وهي تقول:

-كانت أمي تضع الكثير من المساحيق.

قالت الليدي بادجر وهي تنثر البودرة على وجهها:

- لن يكفي هذا يا جين. يوما ما سأقول لك عن سر آخر.

حول المائدة المستديرة في مكتبها، جلس وزراء الخارجية والصناعة والتجارة والشئون الداخلية ومدير مكتب المخابرات وكأن على رؤوسهم الطير، وهم يحدقون في لفافة مستطيلة بين يدي الليدي بادجر التي بدأت الحديث قائلة بصوت صارم:

- نريد أن نعرف إجابة محددة لسؤال واحد: ماذا يفعل العرب بالشكولاتة؟

لم يرد أحد، فاستمرت:

- طبعا لابد أن نتجاوز عن الإجابات البديهية، فلا أحد يحب الشكولاتة مثل الشعب الإنجليزي ولكن لا يمكن مقارنة العرب بنا. أليس كذلك؟

قال وزير الشئون الداخلية:

- من خلال تجاربي المهنية، أعرف أن للشكولاتة استعمالات خطيرة أخرى.

حثته الليدي بادجر:

- نعم؟

- كأن يدس فيها مخدر، أو سم.

قاطعته الليدي ساخرة:

- كما أن الإكثار من أكلها يخرب الأسنان ويأتي بمرض السكر.

نظر الوزير الى زملائه بامتعاض وأطرق ساكتا.

رفعت السيدة قالب الشكولاتة ولوحت به وهي تقول:

- لماذا تشتري بلاد خرجت لتوها من حرب طويلة هذه الكمية من الشكولاتة؟ أريدكم أن تفكروا معي بالأبعاد التي خلف هذه الحركة.

قال وزير الخارجية:

- ولكن لماذا لا نفترض أن هذه البلاد أرادت أن ترفه عن أطفالها بعد الحرب؟

رفعت الليدي إصبعا وقالت:

- لا نريد إجابات بديهية.

قال وزير الصناعة:

- أستطيع أن ادرك ما تفكر به الليدي بادجر. لنفترض أن في تركيب هذه المادة عنصرا ينفع لاستخدامات أخرى لم نتوصل اليها نحن بعد.

سرت همهمة بين الحاضرين فيما هتفت الليدي بلدجر:

- هذا هو!

اعترض وزير التجارة:

- ولكني لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن تحتوي الشكولاتة على مواد خطيرة كما توحون بها.

علق مدير مكتب المخابرات ضاحكا وهو ينظر الى الليدي بادجر:

- ولم لا؟ ألسنا نصنع أحمر الشفاه الفتاك من البترول؟ ما المانع في المقابل أن نصنع من الشكولاتة موادا كيمياوية فتاكة؟

قال وزير التجارة:

- حسنا. يمكن أن أصدق ذلك ولكن ما لا أستطيع أن أصدقه أن يتوصل العرب الى سر كهذا قبلنا.

أجابت الليدي بادجر:

- يا عزيزي إنك لا تستطيع أن تتوقع هذه الأيام ما قد يفعله العرب الماكرون .

وهنا دق جرس الهاتف، فرفعت السماعة "دعيه يدخل" وقالت لمن حولها:

- لقد طلبنا مدير الشركة المنتجة

فتح الباب وخطا الى الداخل رجل أنيق، قال بحزم بعد أن دعي الى الجلوس:

- يا سيدتي الليدي بادجر، إن إيقاف الشحنة يعرض سمعة الشركة للخطر ومن شأنه أن يثير الكثير من المشاكل.

قالت الليدي بلباقة:

- نعرف ذلك ونأسف لاضطرارنا لهذا الإجراء الذي نعدك أن يكون مؤقتا حالما ننتهي من فحص القضية.

تطلع الرجل في وجوه الجالسين وقال:

- أنا لا أدري حقا ما سبب هذا الإجراء. إننا نورد ومنذ سنوات عديدة منتجات شركتنا المعروفة إلى كل أنحاء العالم، وهذه الدولة ليس محظور التعامل معها. أين الخطأ إذن؟

قال وزير الصناعة:

- هون عليك يا سيدي. فالمسألة في غاية البساطة، كل ما نطلبه أن تعطينا تركيبة هذا النوع من الشكولاتة.

هز مدير الشركة رأسه متعجبا، وقال بحدة:

- أهذا هو كل شيء؟ إنكم تطلبون مني يا سادة أن أسلمكم روح الشركة. فمنذ أن أنشأ جدنا الأكبر مصنع الشكولاتة ونحن نتوارث التركيبة شفاها. لم نجرؤ حتى على تدوينها، لئلا تسرقها الشركات المنافسة. بل أني أستطيع أن أؤكد لكم أن هناك شركة سويسرية ذائعة الصيت، مستعدة أن تبيع نصف أسهمها من أجل الحصول على هذا السر.

قاطعه مدير مكتب المخابرات:

- إن ما نطلبه منك واجب وطني. لن نستطيع أن نوضح أكثر.

قال الرجل:

- وحفاظنا على سر صناعة بريطانية واجب وطني أيضا.

تدخلت الليدي بادجر قائلة:

- ولكنك يا سيدي لا تقصد طبعا أن تشكك في نزاهة أحد من الحاضرين وقدرته على احترام سرك؟

نظر مدير الشركة إليهم واحدا واحدا، ثم قال:

- آسف، لن أستطيع. لا أقصد عدم الاحترام، ولكن سبق يا سيدتي الليدي أن طرد من حكومتك رجال بفضائح مجلجلة.

ضربت الليدي بادجر مائدة الاجتماع بقالب الشكولاتة وقالت:

- إذن عليك أن تتحمل نتيجة عنادك.

نهض مدير الشركة واقفا بكبرياء، وأحنى رأسه للجميع في تحية باردة مؤدبة وغادر المكان.

الأحداث التي تلت ذلك الاجتماع كانت سريعة ومتلاحقة .

يغلق مصنع الشكولاتة أبوابه ويسرح عماله لمدة اسبوعين احتجاجا على مصادرة الشحنة، فيخرج العمال في تظاهرات صامتة يطالبون بعودتهم إلى العمل. يزداد الإقبال على شراء الشكولاتة حتى تختفي من رفوف المخازن الكبرى.

تتسرب أنباء صفقة سرية تقوم بها وزارة الدفاع الأمريكية لشراء أطنان من الكاكاو الخام من دولة لم يذكر اسمها.

موسكو تلتزم صمتا، مريبا.

عالم فرنسي يعقد مؤتمرا صحفيا يعلن فيه أنه على وشك استخلاص مادة استراتيجية مهمة من غذاء شعبي. وأنه يتسرع في هذا الإعلان المبهم لئلا يزاحمه عالم آخر ويضيع حقه فيما بعد في براءة الاختراع.

ترتفع أسعار الشكولاتة في كل مكان، وتتكدس التقارير والصحف البرلمانية على مكتب الليدي بادجر.

يختفي العالم الفرنسي في ظروف غامضة.
وتحول (اسرائيل) إلى ميناء إيلات شحنة (كاكاو خام) كانت في طريقها إلى الولايات المتحدة الأمريكية.
تندفع جين الى غرفة سيدتها، تسرع إلى النوافذ تغلقها وتسدل الستائر، مما يثير دهشة سيدتها:
- ماذا يحدث يا جين؟
- الأطفال قادمون يا سيدتي.
- ماذا جرى لك يا جين. ليس لدينا أطفال!
قالت جين وهي تضع مقعدا ضخما مثل متراس خلف الباب.
- بل المئات والمئات وفي أيديهم الحجارة.
- هؤلاء موجودون في الشرق الأوسط يا عزيزتي جين وليس في قلب عاصمتنا.
قالت جين وهي تتلفت حولها زائغة العينين:
- بل في قلب دارنا يا سيدتي.
أطلت الليدي من خلف الستارة إلى الشوارع المحيطة بمنزلها فرأت صفوفا هائلة من طلاب المدارس يزحفون نحو البيت، هادرين بنشيد "واحد اثنان ثلاثة.. الحرية للشكولاتة."
قالت الليدي بادجر وهي تفرك يديها بسرور أدهش وصيفتها:
- هوّني عليك يا جين. إنها لا تعدو أن تكون مشكلة عائلية. أسرعي وأطلبي مصوري الخاص وادخليه من باب المطبخ ولينتظرني هناك.
مد السيد بادجر رأسه من باب جانبي وقال:
- ماجي يا عزيزتي. أخشى أن لديك مشكلة عائلية أخرى.
- ماذا أيضا؟

أشار برأسه الى داخل الغرفة.

- القصر الملكي على الهاتف. جلالتها تسأل إن كان من الممكن الحصول على علبة شكولاتة. يبدو أن الأحفاد الملكيين في حالة إضراب عام عن الطعام منذ الصباح.

تنهدت الليدي بادجر وقالت بتوسل:

- كن ملاكا يا عزيزي وردّ عليها. قل إني في اجتماع طاري وأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن علبتين من الشكولاتة في الطريق إلى جلالتها.

وفيما راح زوجها يكلم القصر، هاتفت الليدي بادجر سكرتير مجلس الوزراء وطلبت منه الاتصال بالشركة المنتجة للشكولاتة لإرسال بضع علب من إنتاجها لتوزيعها على الأطفال المتواجدين لتحيتها خارج منزلها، وإعداد تصريح رسمي بالإفراج عن الشحنة التي كانت سبب المشكلة، إذ تبين بعد الفحص أن علب الشكولاتة المطلوبة لا غبار عليها ولا يبدو أن لها استعمالات أخرى غير الأكل.

تساءل زوجها وكان قد استمع الى الجزء الأخير من المحادثة:

- إذن لم كانت كل تلك الضجة، يا ماجي؟

نظرت إليه بتعال وقالت وهي تمضي إلى المطبخ:

- هذه سياسات عليا يا عزيزي وآسفة إذ لا أستطيع مناقشة أمور الدولة في البيت.

في المطبخ، قالت للمصور وهي تخرج قالب الشكولاتة المصادر:

- الآن تستطيع أن تلتقط تلك الصورة، ولا تنس أن توزعها على جميع الصحف.

وابتسمت بسعادة حقيقية وهي ترفع القالب إلى مستوى الصورة وتسوي عقد اللؤلؤ حول عنقها. ثم التفتت إلى وصيفتها بعد أن انصرف المصور وقالت وهي تضحك:

- هل تذكرين حين قلت أن أمك كانت تضع الكثير من المساحيق؟

- نعم يا سيدتي وأذكر أنك قلت لي أن هناك سرا آخر يجعل المرأة التي جاوزت سن الشباب موضع اهتمام الجميع.

قالت الليدي بادجر وهي تبتسم ابتسامة ماكرة:

- في كلمتين يا عزيزتي جين.. أن تثير الكثير من الضجيج.

** * **

أمريكا.. أمريكا

نشرت في صحيفة (الثورة) العراقية، بتاريخ 1990/6/17
*ملاحظة الكاتبة: افترضنا أن المجلة اسمها Newsreek وتعني الرائحة القوية الكريهة وافترضنا أن المجلة الأخرى التي ورد ذكرها، اسمها Rime والاسمان على وزن إسمي مجلتين امريكيتين معروفتين.

كان يوم عمل عاديا في مؤسسة "نيوزريك" الصحفية، حيث جلست الآنسة لورا باسكال تنسق المواد المنوطة بها، وهي تختلس النظر إلى زميلها جيم كلارك الذي كان يلهب الآلة الكاتبة بأصابعه، وأخيرا لم تطق إلا أن تسأله:

- ماذا تكتب منذ الصباح؟

قال جيم دون أن تبرح أصابعه مفاتيح الآلة:

- قنبلة الموسم.

وقبل أن تستوضحه دق جرس الهاتف الداخلي على مكتبه ليسمع صوت رئيسه على الطرف الآخر يسأل:

- ماذا فعلت بموضوع الشرق الأوسط.
- على وشك الانتهاء منه يا رئيس.
- ألم تأخذ وقتا أكثر مما يجب؟
- هذا صحيح، ولكني كنت أحاول أن اكتب مادة جديدة.
- حسنا عجل به، والصور؟
- جاهزة يا رئيس.

قال رئيس التحرير:

- إني في الانتظار.

ووضع السماعة بشدة أحدثت دويا في أذن جيم، فنظر مبتسما لزميلته، وهز رأسه، وهو يضع السماعة، ويعود إلى عمله.

بعد قليل، لملم أوراقه ودخل بها غرفة رئيس التحرير الذي تفحصها مليا، ونشر الصور على المكتب يتأملها، ثم قال:

- أعطني فكرة سريعة.

قال جيم متحمسا:

- حاولت أن أبين بالبيانات والصور والشهادات الحية – كل شيء موجود عندك – عما تفعله (إسرائيل) من ممارسات عنصرية ليس ضد العرب فقط، وإنما ضد بعض قطاعات اليهود أنفسهم. أردت أن أقول أن نقود دافع الضرائب الأمريكي تذهب لدعم هذه الممارسات المنافية لحقوق الإنسان التي ندفع بشبابنا إلى آخر الدنيا للدفاع عنها.

- عظيم.

- والصور يا رئيس التقطها مصور هاو كان في زيارة لتل أبيب واستطاع أن يسجل بكاميرته الكثير من اللقطات المستحيلة التي لم ينشر مثلها من قبل، وقد وعدته أن تكافئه المجلة جيدا إذا نشرنا صوره، والأمر لكم.

- رائع! أرى أن يختار المدير الفني أربعا منها للداخل وواحدة للغلاف. ربما هذه؟

عاد جيم إلى مكانه وهو يبتسم ابتسامة عريضة، غطى الآلة الكاتبة والتفت إلى لورا:

- ما رأيك أن أدعوك إلى الغداء؟

- لابد أن الأمور سارت على ما يرام.

- سنظهر على الغلاف هذا الأسبوع!

قفزت لورا من مكانها:

- هذا عظيم يا جيم. هل أستطيع أن أعرف التفاصيل؟

وتوقفت عيناها تتابعان رجلا طاعنا في السن، محنى الظهر قليلا، يرتدي ملابس أنيقة، ويتخذ طريقه بتؤدة نحو مكتب رئيس التحرير.

نادت لورا بصوت عال:

- آسفة يا سيد. هل لديك موعد سابق؟

التفت الرجل نحوها بحدة، ونظر إليها برهة وكأنه لم يفهم. ثم قبل أن تستطيع أن تمنعه كان قد دفع باب المكتب واختفى داخله.

بعد نصف ساعة تقريبا، خرج الرجل العجوز، وتقدم نحو طاولة لورا، وقال مبتسما:

- آسف يا عزيزتي إذ خالفت أمرك. ورغم أني عجوز، لكني أستطيع أن أرى إنك سيدة جميلة لا يصح أن يخالف أمرها أحد، وربما الشباب يفهمون ذلك خيرا مني.

ونظر بدعابة إلى كلارك.

قالت لورا مبهورة:

- شكرا على ظرفك يا سيد...

- إسمي روزنبوم.. دانيال روزنبوم. ولكن دان فقط بالنسبة لامرأة بجمالك..

- أوه.. شكرا سيد روزنبوم

- دان يا عزيزتي...

- لورا باسكال

- اسم جميل يا لورا، وربما نلتقي ثانية.

قال هذا واستدار وهو يومئ برأسه لجيم، وغادر المكان.

قالت لورا وهي تودعه بعينيها:
- ما ألطفه!
أطل رئيس التحرير من باب مكتبه وأشار إلى جيم:
- تعال لحظة يا جيم.
وعندئذ فاجأه بأن سلمه التقرير الصحفي والصور قائلا:
- بعد التفكير ثانية في الموضوع، أخشى إننا لن نستطيع نشر ما كتبت.
- ولكني بذلت فيه كل جهدي.. منذ شهر كامل وأنا أحضر له. الناس الذين قابلتهم، والمصادر التي راجعتها، وأظن أني قد جئت بشيء لم يسبق نشره في أية صحيفة.
قال رئيس التحرير:
- ولن ينشر يا جيم. استمع إليّ. منذ شهر طلبت منك أن تكتب موضوعا عن الشرق الأوسط، كما يفعل الجميع هذه الأيام. وها أنت تأتيني بشيء هامشي، وكأنك لا تعلم أن القضية الأولى في تلك المنطقة هو الخطر الذي يتهدد دولة صغيرة مسالمة وسط دول معادية لا تتورع عن رميها في البحر.
- ولكن المعلومات التي لديّ..
قاطعه رئيس التحرير بحسم:
- دعنا من المعلومات التي لديك. وتذكر أني ما زلت في انتظار موضوعك عن الشرق الأوسط.
ورغم أن جيم كلارك أدرك بخبرته أن هذه الجملة قد أنهت المقابلة، وعليه الآن أن ينسحب، لكنه ظل واقفا متسمرا في الأرض، ثم قال يائسا:

-    شيء أخير أرجوك. هل تمانع في نشره في أي مكان آخر؟

-كلا في ما يتعلق الأمر بي فالمسألة تخصك.

** * **

في طرف آخر من المدينة، قال له رئيس تحرير مجلة -رايم- أن نشر مثل هذه المعلومات فيه مساس بالأمن القومي وتدخل في الأمور الداخلية للدول الحليفة، وأن المجلة تعد في الوقت الحاضر تقريرا خاصا يشترك فيه مراسلوها في موسكو وأوربا الشرقية حول العداء للسامية الذي بدأ يطفو على السطح مرة أخرى في تلك البلاد. وأن جيم على الرحب والسعة إذا كان يمتلك أية معلومات بهذا الخصوص.

أخذ جيم أوراقه وسار نحو باب الخروج مثقلا بالأفكار حتى أنه لما اصطدم برجل كبير السن كان قادما من الاتجاه المضاد، واعتذر له بشكل آلي لم يلتفت ليرى الرجل وهو يومئ برأسه تحية له ويبتسم، فلم يكن غير السيد الظريف دانيال روزنبوم.

** * **

في الأيام القليلة التالية حين أدرك جيم أخيرا استحالة نشر تقريره في أية صحيفة أمريكية محترمة، عمد إلى الخلود إلى منزله محاطا بمجموعة من الكتب والمجلات والمصادر، ثم ابتدأ يكتب عريضة طويلة من عدة صفحات إلى لجان (حرية المعلومات) و(حرية الصحافة) في الجمعية الأمريكية لمحرري الصحف، ضمنها مقتطفات صارخة من كتاب هارولد كروس

(حق الشعب في أن يعرف) الذي لم يعد يفارقه، بل أصبح يتأبطه إلى النوادي والجامعات والمحاضرات التي قد تعقد هنا وهناك. ولما أنهى العريضة، أعاد قراءتها، فأعجبته فصاحتها، وهكذا بعث نسخا منها إلى الكونغرس ومنظمة حقوق الإنسان. ولكن حين طال انتظاره ولم يرد عليه أحد، ازداد كآبة، فأهمل مظهره، وأطال لحيته وغاب عن عمله حتى طرد منه، فانزوى في بيته مهموما حتى تفتق ذهنه عن خاطر أن يتظاهر منفردا، فعلق لافتة على صدره تتساءل "من يمتلك أمريكا الحرة؟" وصار يقضي نهاراته رائحا غاديا أمام البيت الأبيض لا يثير انتباه أحد، حتى جاء يوم رأى رجلا أنيقا محني الظهر يتقدم نحوه من بعيد. خيل إليه أنه يعرفه، ولما اقترب، تبين فيه ذلك الرجل المهذب السيد روزنبوم الذي بادره قائلا:

- ماذا تفعل هنا يا عزيزي كلارك؟ أو ليس هذا اسمك؟

أجاب جيم بسخرية:

- كما ترى!

ابتسم السيد روزنبوم بنعومة وقال:

- ما رأيك؟ هل تحب أن تعمل لدي؟ أعرف عنك أنك شاب طموح ومتحمس ولك مستقبل واعد.

- وماذا اشتغل لديك؟ آسف أني حتى لا أعرف مهنتك يا سيد روزنبوم.

- لنقل أني أمتلك مع آخرين مؤسسة إعلامية، ونحتاج إلى مدير علاقات عامة. وقد بلغ علمي أن لك اتصالات واسعة بالنوادي والجامعات والأشخاص المهمين، ولك قدرة على

التحرك، إضافة إلى أنك تكرس كل جهدك للعمل الذي يسند إليك، وهذه ميزة

نحتاجها في مؤسسة روزنبوم روزنبوم و..

قاطعه جيم:

- آسف يا سيدي، ولكني طوال حياتي لم أتمن إلا أن أكون صحفيا، ولا أرغب في أي عمل غير ذلك.

قال العجوز:

- ولكنك لا تشتغل في مهنتك الآن. انظر ماذا تفعل بنفسك؟

قال جيم بتحد:

- بل هذا في صميم مهنتي.

ربت السيد روزنبوم على كتف جيم:

- أنت حر فيما تفكر فيه، كنت أحب أن أخدمك.

وتنهد يائسا، وألقى تحيته، ومضى في سبيله.

** * **

بعد ساعة تقريبا، وقع الحادث. لم يستطع أحد أن يلتقط رقم السيارة، فقد فرت هاربة بأقصى سرعة. غطى الدم الكتابة المخطوطة على اللافتة، تاركا علامة الاستفهام واضحة وكأنها فم مفتوح بدهشة أبدية.

حضر الجنازة بعض زملاء جيم السابقين، ومنهم الآنسة لورا باسكال التي كانت تكفكف دموعها بصعوبة، لكنها استطاعت أن تتمالك نفسها وهي تفاجأ بوجه أبوي باسم:

- آه.. السيد روزنبوم. كم أنا سعيدة أن ألتقي بك ثانية. رغم هذه الظروف.

قال العجوز بحزن ظاهر:

- كم أنا آسف لضياع هذا الشاب الذي كان يعد بمستقبل طيب، كيف حدث ذلك؟

- حادث سيارة.

هز السيد روزنبوم رأسه:

- يا للخسارة. يجب أن يفعلوا شيئا لتهور بعض السائقين.

قالت لورا بإخلاص:

- ولكن.. ما ألطف أن تحضر لتوديع جيم الوداع الأخير!

- صدقيني يا عزيزتي أنه يحز في نفسي أن أحضر مثل هذه المناسبة. هل ترين إكليل الزهور ذاك؟ لقد بعثته مؤسستنا وهذا أقل ما يجب فعله للأصدقاء.

اشرأبت لورا بعنقها لترى الإكليل الذي أشار إليه وقالت:

- إنه رائع. أجل، وأستطيع أن أقرأ الإهداء من مكاني: مؤسسة.. آه.. (مؤسسة روزنبوم وروزنبوم وكوهين).

** * **

تمت

الكاتبة في سطور

بثينة الناصري - أديبة عراقية تكتب القصة منذ منتصف الستينات ونشرت أول مجموعة في بغداد عام 1974.

في أواخر 1979 هاجرت الى مصر واستقرت فيها منذ ذلك الحين. قاصة ومترجمة وكاتبة وسيناريست وباحثة وإعلامية وصاحبة دار نشر لفترة وجيزة (خمس سنوات).

من أعمالها القصصية:

- حدوة حصان - نشرت في بغداد 1974
- موت إله البحر - نشرت في القاهرة 1977
- فتى السردين المعلب - نشرت في بغداد 1991
- وطن آخر - نشرت فقي القاهرة 1995
- الطريق الى بغداد - نشرت في القاهرة وبغداد في وقت واحد 1998
- لماذا لا نذهب الى البحر كثيرا ؟ - القاهرة 2008
- Final Night مختارات من قصصها مترجمة الى الانجليزية صدرت عن دار نشر الجامعة الامريكية في القاهرة 2001 وطبعة ثانية في 2008
- Notte Finale مختارات مترجمة الى الايطالية صدرت في ميلانو 2003

ترجم العديد من قصصها إلى الانجليزية والفرنسية والالمانية والسويدية والنرويجية والاسبانية.

صدر المجلد الأول من أعمالها القصصية الكاملة - عن دار كتبخانة في القاهرة - 2016

صدر المجلد الثاني من أعمالها القصصية الكاملة - دار كتبخانة - القاهرة 2016

الأعمال التي قامت ترجمتها عن الانجليزية

- رواية (بن يجوب العالم) للروائية دوريس ليسنج 2009 عن الهيئة العامة للكتاب.
- كتاب (يوميات الجنود الأمريكان في بلاد الرافدين) 2008 عن مركز الحضارة العربية - القاهرة
- رواية "عذارى من حجر" للروائية ايفون فيرا - من زمبابوي - 2011 المركز القومي للترجمة - القاهرة
- كتاب (الإعلام الأمريكي بعد العراق: حرب القوة الناعمة) - للمؤلفين ناثان غيردلز- ومايك ميدافوي- عن المركز القومي للترجمة - 2015 القاهرة

يوميات الكوفي شوب

وقصص أخرى

في هذه المجموعة أحلق في مغامرات الكتابة من ذرى جبال أفغانستان الى غوانتامو الى ايرلندة الى حجارة فلسطين الى صقيع لندن الى بيوت العراق الى نزهة خارج النافذة في الدور العلوي، وأهبط على كوفي شوب في الحي الثالث في مدينة 6 اكتوبر- مصر.

وكانت هذه المحطة الأخيرة مغامرة حقيقية حين أتيح لي – إذ كنت خالية شغل - أن أستأجر و أدير كوفي شوب لمدة 6 أشهر مابين 2004 و 2005

ماذا يضر؟ قلت لنفسي. مغامرة جديدة وهل الحياة سوى مغامرات؟ كانت كارثة لكن جميلة..

بثينة الناصري

الغلاف / أحمد خلف

تم إعادة الرفع بواسطة
مكتبة عسكر
ask2pdf.blogspot.com
نحن لا نقوم بتصوير أو نسخ الكتب
ننشر الكتب الموجودة بالفعل علي الإنترنت
نحترم حقوق الملكية
ولا نمانع حذف رابط أي كتاب
إذا طالب مؤلف أو دار نشره بحذفه